DREAM STORY

قصة حلم

رواية

أرثر شنيتزلر

ترجمة: سامح سمير

أدب نمساوي حديث

MODERN AUSTRIAN LITERATURE

TRANSLATED BY: SAMEH SAMIR

ARTHUR SCHNITZLER

المحروسة

قصة حلم

مكتبة 1261

عنوان الكتاب: قصة حلم

المؤلف: آرثر شنيتزلر

ترجمة: سامح سمير

الطبعة الأولى 2019

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت، ف: -002 02 28432157

facebook/almahrosacenter

twiter: @almahrosacenter

www.mahrousaeg.com

e.mail : info@mahrousaeg.com

e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٦٨٢٢

الترقيم الدولي: 978-977-313-762-5

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية

محفوظة لمركز المحروسة

قصة حلم

آرثر شنيتزلر

ترجمة: سامح سمير

مكتبة 1261

رواية

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

مكتبة
t.me/soramnqraa
16 7 23

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

شنيتزلر، آرثر.

قصة حلم: رواية/ آرثر شنيتزلر؛ ترجمة سامح سمير.-

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2018

105ص؛ 14.5×21.5سم

تدمك 978-977-313-762-5

1 - القصص الألمانية

أ - سمير، سامح (مترجم)

833

رقم الإيداع ٢٦٨٢٢/ ٢٠١٨

رابسودي

1

مكتبة
t.me/soramnqraa

أربعة وعشرون عبدًا سود البشرة كانوا يجدفون بالسفينة الرائعة التي تُقل الأمير أماجياد إلى قصر الخليفة. كان الأمير مستلقيًا وحيدًا على سطح السفينة بعباءته الأرجوانية تحت السماء داكنة الزرقة المرصعة بالنجوم، ونظرته..."

حتى هنا كانت الفتاة الصغيرة تقرأ بصوت عالٍ. وفجأة، ارتخى جفناها. نظر والداها أحدهما إلى الآخر وابتسما. ثم انحنى فريدولين، وطبع قبلة على شعرها الأشقر، وأغلق الكتاب الملقى على المائدة غير المرتبة. وعندها رفعت الطفلة ناظريها كأنها ضُبطت وهي تتشاقى.

قال أبوها: "إنها التاسعة مساء؛ حان وقت الذهاب إلى الفراش". انحنت ألبرتينا أيضًا فوقها، وعندما التقت يدها يد زوجها فوق الجبين الحبيب، نظرا أحدهما إلى الآخر بابتسامة رقيقة لم تكن

موجهة للطفلة. دخلت المربية وطلبت إلى الفتاة الصغيرة أن تلقي على والديها تحية المساء. فنهضت الطفلة بإذعان، وقبلت أباها وأمها ثم خرجت بهدوء ويدها في يد المرأة الشابة. عندما صار فريدولين وألبرتينا وحدهما، تحت الوميض الضارب إلى الحمرة المنبعث من المصباح الذي يتدلى من السقف، استأنفا حديثهما الذي كانا قد بدآه قبل العشاء حول التجارب التي مرا بها في الحفل التنكري الليلة الماضية.

كانا قد قررا حضوره قبل انتهاء فترة الكرنفال مباشرة، كأول حفل يحضرانه هذا الموسم. ما إن دخل فريدولين إلى صالة الرقص حتى رحبت به سيدتان ترتديان عباءتين دومينو ذواتي لون أحمر، كما لو كان صديقًا قديمًا فقدتا أثره منذ زمن. لم تكن لديه أدنى فكرة عمن تكونان، رغم أنهما كانتا مطلعتين -على نحو مذهل- على الكثير من الوقائع التي تعود لأيام دراسته وفترة تدريبه العملي. ثم دعتاه لأحد الأكشاك على نحو ودي للغاية، لكنهما غادرتا مرة أخرى على وعد بالعودة سريعًا من دون القناعين. وعندما لم تظهرا، بدأ صبره ينفد فنزل إلى صالة الرقص على أمل أن يلتقيهما مرة أخرى. بيد أنه عندما راح يمسح الغرفة بعينين متلهفتين، لم يستطع أن يرى لهما أثرًا في أي مكان. وبدلاً من ذلك، جاءت امرأة أخرى، على حين غرة، وأمسكت بذراعه. كانت زوجته، وقد تخلصت توًا من صحبة شخص غريب اجتذبها بشدة في البداية بلكنته البولندية، وسلوكه الذي يتسم بتلك اللامبالاة لشخص رأى كل شيء ولم يعد يبهره شيء. لكن فجأة ساءها سلوكه، وأثار فزعها بملاحظة مبتذلة وشديدة البذاءة. كان فريدولين وألبرتينا سعيدين لتمكنهما من الهرب من هذا الحفل المخيب للآمال، والأشبه بمزحة سخيفة شديدة السوقية. وسرعان ما اتخذا مجلسهما في البوفيه كعاشقين وسط بقية الأزواج، يأكلان المحار ويشربان الشمبانيا. أخذا يثرثران في مرح، كأنهما قد تعرفا إلى بعضهما توًا، وانخرطا في

أداء فاصل كوميدي من الغزل، والتمنع الخَجِل، والإغواء والاستسلام للإغواء.

وبعد عودتهما على وجه السرعة إلى منزلهما بالسيارة، تحت الثلوج المتساقطة في تلك الليلة الشتوية، غاص كل منهما بين ذراعي الآخر، منتشيين بحبهما المتأجج على نحو لم يعهداه منذ وقت طويل. بيد أن ضوء الصباح الرمادي أيقظهما بأسرع مما ينبغي. ففريدولين استدعته مهنته في ساعة مبكرة للذهاب لعيادة مرضاه، في حين أن ألبرتينا، بسبب مسؤولياتها كربة منزل وأم، ما كانت لتمكث في الفراش أكثر من ذلك. وهكذا انقضت الساعات التالية، بجدية وعلى نحو مرسوم سلفًا، في الأعمال الروتينية اليومية، فيما راحت أحداث الليلة الماضية، سواء تلك التي وقعت في بدايتها أو في نهايتها، تبهت وتتلاشى.

*الدومينو هي عباءة فضفاضة ذات قناع يغطي النصف العلوي من الوجه.

لكن الآن، وقد انتهت أعمال اليوم، ذهبت الطفلة إلى فراشها ولم يعد هناك أي سبب متوقع للإزعاج، انبعثت مجددًا إلى عالم الواقع الأشكال الغامضة في الحفل التنكري جميعها، والرجل الغريب ذو المزاج الكئيب، وعباءتا الدومينو الحمراوان. وفي الحال، اصطبغت كل تلك الأحداث التافهة، على نحو سحري ومؤلم، بالبريق الخادع للفرص الضائعة. أسئلة بريئة لكن نافذة، وإجابات ماكرة ومبهمة، أخذت تسري بينهما جيئة وذهابًا. لم يعجز أي منهما عن ملاحظة أن الآخر ليس صادقًا في كلامه صدقًا مطلقًا، فاعتراهما شعور خفيف بالنقمة والرغبة في الانتقام. فراح أحدهما يبالغ في حجم الانجذاب الذي شعر به الآخر تجاه رفيقه المجهول في الحفل، ويسخر من مشاعر الغيرة لديه وينكرها في نفسه. وما لبثت محادثتهما الخفيفة عن الوقائع البسيطة التافهة في الليلة الماضية أن تحولت إلى نقاش أكثر جدية، حول تلك الرغبات السرية التي لا يكاد يرتاب في وجودها أحد، والتي

بوسعها رغم ذلك إثارة زوابع خطيرة حتى في أشد الأرواح سلامًا وسكينة.

أخذا يتحدثان عن تلك المناطق الغامضة التي بالكاد يَعِيَانِها، والتي قد تدفعهما صوبها يومًا ما رياح القدر العصية على الفهم، ولو حتى في أحلامهما فحسب. فرغم كونهما متحدين فكرًا وروحًا، كانا يدركان جيدًا أنها لم تكن المرة الأولى التي يتلقيان فيها الدعوة من ربة المغامرة والحرية والمخاطرة . وبروح قلقة ومعذبة، أخذ كل منهما يجهد بفضول ماكر لانتزاع الاعترافات من الآخر. وبلهفة، راحا يبحثان بداخلهما عن واقعة لا قيمة لها، أو تجربة تافهة، قد تستطيع أن تعبر عما يستحيل التعبير عنه، وقد يخفف الاعتراف الصريح بها من حدة ما يكابدانه من توتر وشكوك أصبحت تفوق قدرتهما على الاحتمال.

وسواء كانت ألبرتينا الطرف الأكثر نفاد صبر، أو أمانة، أو طيبة قلب، فقد كانت هي التي بادرت باستجماع شجاعتها للإدلاء باعتراف صريح. سألت فريدولين بصوت متردد للغاية عما إذا كان يذكر ذلك الشاب الذي قابلاه الصيف الماضي على شواطئ الدنمارك، حيث كان يجلس ذات مساء مع ضابطين آخرين إلى مائدة مجاورة لمائدتهما. كان قد تسلم تلغرافًا في أثناء العشاء، وعلى أثره ألقى على صديقيه تحية الوداع في عجالة.

أومأ فريدولين وسألها: "ماذا عنه؟".

"كنتُ قد رأيتهُ في وقت سابق من ذلك الصباح، عندما كان يهبط سلالم الفندق مسرعًا، وهو يحمل حقيبة يده الصفراء. عندما مر بي نظر إليّ، وقطع بضع خطوات قبل أن يتوقف. ثم استدار نحوي والتقت عيوننا. لم يبتسم؛ وفي الحقيقة خُيل إليّ أنه قطّب وجهه. وأعتقد أن هذا هو ما فعلته أنا أيضًا، لأنني كنتُ منفعلة للغاية.

أمضيتُ اليوم بطوله مستلقية على الشاطئ، ضائعة في أحلامي. رحتُ أفكر في أنه لو ناداني ما كنتُ لأستطيع أن أبدي أية مقاومة. شعرتُ أنني مستعدة لأي شيء. وكنتُ عمليًا قد حزمتُ أمري على التخلي عنك، وعن الطفلة، وعن مستقبلي، وفي الوقت نفسه -إن كان بوسعك أن تفهم هذا- كنتَ عزيزًا عليّ أكثر من أي وقت مضى. بعد ظهر ذلك اليوم -أنت بالتأكيد تذكر هذا- تناقشنا، أنا وأنت، في أشياء عديدة بحميمية شديدة، أشياء من قبيل مستقبلنا المشترك، وطفلتنا. وعند الغروب كنا جالسين أنا وأنت على الشرفة، عندما مر هو على الشاطئ بالأسفل دون أن يرفع ناظريه تجاهنا. شعرتُ بإثارة شديدة لرؤيته، لكنني مسحتُ جبينك بيدي وطبعت قبلة على شعرك، وكان حبي لك مترعًا بالحزن والعطف في آنٍ معًا. في تلك الليلة على العشاء وضعتُ وردةً بيضاء في فستاني، وأنتَ نفسك قلتَ إنني أبدو جميلة للغاية. ربما لم يكن الأمر مجرد صدفة أن جاءت جلسة هذا الغريب مع صديقيه بجوارنا. لم ينظر إليّ، لكني فكرتُ في أن أنهض، وأتوجه نحوه وأقول له: ها أنذا، يا محبوبي الذي كنتُ في انتظاره؛ خذني معك. في تلك اللحظة وصله التلغراف. قرأه، فشحب وجهه، ثم همس ببضع كلمات لأصغر الضابطين سنًا -ورمقني بنظرة غامضة ثم غادر الحجرة".

سألها فريدولين بنبرة جافة عندما توقفت عن الكلام: "وبعد ذلك؟".

"هذا كل ما حدث. أذكر أنني استيقظت صباح اليوم التالي وأنا أشعر بجزع مشوب بالتوتر. لم أكن أعرف ما إذا كنتُ خائفة من أن يكون قد رحل، أم من أن يكون ما زال هناك. لكنه عندما لم يظهر وقت الظهيرة، تنفستُ الصعداء. لا تطرح عليّ مزيدًا من الأسئلة يا فريدولين، فقد أخبرتُك بالحقيقة كاملة. وأنت أيضًا مررتَ بتجربة ما على شاطئ البحر، أعرف ذلك".

نهض فريدولين، وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا عدة مرات ثم قال: "أنتِ محقة".

كان يقف بجوار النافذة، وجهه غارق في الظلال، وبصوت أجش ونبرة عدائية بعض الشيء بدأ يتكلم: "أحيانًا، في الساعات الأولى من الصباح قبل أن تستيقظي، اعتدتُ أن أتمشى على الشاطئ، خارج حدود البلدة. حتى في مثل تلك الساعة المبكرة، كانت الشمس تسطع فوق البحر، متوهجة ومهيبة. على هذا الشاطئ، كما تعرفين، توجد أكواخ تقف منتصبة، كل منها على حدة، كعالم قائم بذاته. بعضها له حدائق مُسيّجة، والبعض الآخر لا يحيط به سوى الغابة. ويفصلها الطريق وجزء من الشاطئ عن أكشاك تبديل الملابس. في مثل تلك الساعة نادرًا ما كنتُ ألتقي أحدًا من الناس؛ والمستحمون لا أثر لهم على الشاطئ بعد. ذات صباح، على حين غرة، لمحتُ هيئة امرأة. ظهرت فجأة على الإفريز الضيق لأحد أكشاك تبديل الملابس، يرتكز على دعامات مغروزة في الرمل. كانت تتقدم إلى الأمام بحرص، واضعة قدمًا أمام الأخرى، وذراعاها ممدودتان إلى الوراء بمحاذاة الألواح الخشبية. كانت فتاة في ريعان الشباب، في نحو الخامسة عشرة من العمر، شعرها أشقر مسترسل ينسدل على كتفيها أحد جانبي صدرها الرقيق. كانت تحدق إلى الماء في الأسفل، وتتحرك ببطء على امتداد السور، خافضة ناظريها باتجاه الركن البعيد. وفجأة توقفت قبالتي ومدت ذراعيها إلى الوراء بأقصى ما تستطيع، كأنها تبحث عن نقطة ارتكاز أكثر ثباتًا. ثم رفعت ناظريها فجأة، فرأتني أمامها. وعندها سرت رجفة في جسدها، كأنها تمنت أن تسقط في الماء أو تركض بعيدًا. لكن لأنها كانت لا تستطيع أن تتحرك على الإفريز الضيق إلا ببطء شديد، كان لزامًا عليها أن تظل ثابتة في مكانها. وقفت هناك بوجه يعلوه الفزع في البداية، ثم الغضب، وأخيرًا الحرج. وفجأة دون أي مقدمات، ابتسمت ابتسامة رائعة. كان في عينيها ترحاب، ودعوة، وفي الوقت

نفسه سخرية خفيفة مني، فيما راحت تختلس النظر إلى الشريط المائي الذي يفصل بيننا. ثم مطت جسدها الشاب، الرشيق، سعيدة بجمالها، وقد أثار إعجابي الواضح في نفسها شعورًا عذبًا بالزهو. وقف أحدنا في مواجهة الآخر لنحو عشر ثوانٍ، بشفتين نصف منفرجتين وعينين مبهورتين. مددتُ ذراعي نحوها بطريقة لا إرادية؛ ولاحت في عينيها نظرة بهجة واستسلام. ثم هزت رأسها بحدة، ورفعت إحدى ذراعيها عن السور، وبإشارة من يدها أمرتني بالانصراف. وعندما لم أمتثل في التو، رمتني بنظرة استعطاف من عينيها الشبيهتين بعيني طفلة، فلم يعد أمامي إلا أن أذهب، فغادرت المكان بأسرع ما يمكن. لم أنظر ولو مرة واحدة إلى الوراء، ليس مراعاةً لمشاعرها، ولا بدافع الإذعان أو الشهامة، لكن لأني استشعرتُ في نظرتها الأخيرة عاطفة عميقة، تتجاوز كل ما خبرته في حياتي حتى تلك اللحظة، لدرجة أنني أوشكت على الإغماء".

ثم توقف عن الكلام.

أطرقت بعينيها وبصوت رتيب، سألته: "وكم مرة قابلتها بعد ذلك؟"

"ما أخبرتكِ به الآن، حدث في اليوم الأخير من إقامتنا في الدنمارك. ولولا هذا لما عرفتُ قط ما كان يمكن أن يحدث. أنتِ أيضًا يا ألبرتينا لا يجب أن تطرحي عليّ مزيدًا من الأسئلة".

كان لا يزال واقفًا بجوار النافذة بلا حراك، عندما نهضت ألبرتينا ومشت تجاهه، بدموع في عينيها وتقطيبة خفيفة على وجهها.

قالت له: "في المستقبل دعنا نخبر بعضنا بمثل تلك الأمور بمجرد أن تحدث".

أومأ برأسه في صمت.

"هل تعدني؟"

أخذها بين ذراعيه وسألها بصوت أجش: "ألا تعرفين ذلك؟".

أخذت يديه في يديها ونظرت إليه بعينين مضببتين، كان بوسعه أن يقرأ أفكارها في أعماقهما. لقد كانت تفكر في تجاربه الأخرى، الأكثر أهمية، تلك التي تعود إلى شبابه المبكر، والتي كانت على دراية بالعديد منها. ففي بداية زواجهما، كان قد أذعن، بأسرع مما ينبغي، لفضولها المشوب بالغيرة فأخبرها، بل بالأحرى (كما كان يبدو له الأمر في كثير من الأحوال) أفشى لها العديد من الأسرار التي كان يجب أن يظل محتفظًا بها لنفسه. كان يعرف أن ما أخبرها به للتو سيذكّرها لا محالة بتلك الأمور، ومن ثم لم يُفاجأ تقريبًا عندما سمعها تهمهم بالاسم الذي كاد يطويه النسيان لواحدة من حبيبات شبابه المبكر. بدا له ذلك نوعًا من التأنيب، أم تراه تهديد مبطن؟

رفع يديها إلى شفتيه وقال: "أتمنى أن تصدقيني إذا قلتُ لكِ، حتى لو بدا كلامي مبتذلاً، إنه في كل امرأة اعتقدتُ أنني أحببتُها كنتِ أنت دائمًا التي أبحث عنها. أنا أعرف ذلك جيدًا يا ألبرتينا، على نحو يفوق قدرتك على فهمه".

لاحت على شفتيها ابتسامة حزينة، وسألته: "ماذا لو افترضنا أنني قبل أن أقابلك، كنتُ أنا أيضًا أبحث عن رفيق؟" تبدلت نظرة عينيها، صارت أكثر هدوءًا وثقةً واستغلاقًا، فترك يديها تنزلقان من بين يديه، كأنه ضبطها متلبسة بالكذب أو خيانة العهد. لكنها تابعت كلامها:

"أوه، لو أنكم تعرفون أيها الرجال!". ثم صمتت مجددًا.

"لو أننا نعرف...؟! ماذا تقصدين بهذا؟".

بصوت أجش على نحو غريب أجابته: "أقصد ما تفكر فيه يا عزيزي".

"ألبرتينا! إذًا فهناك شيء أخفيتِه عني؟".

أومأت بالإيجاب، ثم أطرقت ولاحت على شفتيها ابتسامة غريبة؛ فاجتاحت عقله عاصفة من الشكوك الرهيبة والمبهمة.

"لا أفهمك تمامًا. لقد كنتِ بالكاد في السابعة عشرة من عمرك وقت خطبتنا".

قالت وهي تحدق إليه بعينين تشعان بريقًا: "كنتُ قد جاوزتُ السادسة عشرة، أجل. لكن لم يكن خطأي أنني كنتُ ما زلتُ عذراء عندما أصبحت زوجتك".

"ألبرتينا!".

لكنها واصلت كلامها: "كانت أمسية صيفية جميلة عند بحيرة ورثير، قبل خطبتنا مباشرة، عندما جاء شاب شديد الوسامة، ووقف قبالة نافذتي المطلة على مرج فسيح مترامي الأطراف. وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث، أخذت أقول لنفسي -اسمع هذا!- يا له من شاب ساحر؛ ليس عليه سوى أن ينطقها -على أن تكون هي الكلمة الصحيحة، بالطبع- وعندها سوف أنطلق معه إلى المرج أو الغابة، أو ربما سيكون من الأجمل لو قمنا بنزهة بالقارب في البحيرة، وسوف أمنحه أي شيء قد يشتهيه هذه الليلة. هذا ما رحتُ أفكر فيه بيني وبين نفسي. بيد أنه لم ينبس بكلمة واحدة، ذلك الشاب الساحر، وبدلاً من ذلك اكتفى بطبع قبلة رقيقة على يدي فحسب. وفي صباح اليوم التالي سألني إن كنت أريد أن أصبح زوجته، فأجبته بنعم".

شعر فريدولين بالانزعاج وأسقط يدها، وقال: "ولو حدث أن شخصًا آخر غيري وقف أمام نافذتك تلك الليلة وخطرت له الكلمة الصحيحة، لو على سبيل المثال...". توقف لحظة ليفكر، لكنها أشارت بيدها محتجة.

"أي رجل آخر -أيًا يكن- كان بإمكانه أن يقول ما يحلو له، وما كان ذلك ليحرك فيّ شعرة واحدة. ولو كان الشخص الذي وقف أمام نافذتي أحدًا غيرك، فمن المحتمل جدًا أن تلك الأمسية الصيفية ما كانت لتكون بهذا الجمال". وابتسمت له.

حرك شفتيه بطريقة تنم عن الاستهزاء، وقال: "نعم، هذا ما تقولينه الآن. ربما كان هذا أيضًا هو ما تعتقدينه في هذه اللحظة. لكن...".

سمعا طرقًا على الباب. دخلت الخادمة وأعلنت أن مدبرة المنزل الكائن في شارع شريفوجيل أتت لاصطحاب الطبيب إلى هناك، لأن حالة المستشار بريفي قد ساءت للغاية مرة أخرى.

خرج فريدولين إلى الصالة، وعندما أخبرته المرأة أن المستشار أُصيب بنوبة قلبية حادة جدًا، وعدها بالمجيء في الحال.

بينما كان يهم بالمغادرة، سألته ألبرتينا: "أنت ذاهب إذًا؟". قالتها بنبرة مفعمة بالاستياء كأنه قد تعمد الإساءة إليها.

أجاب فريدولين، بدهشة: "أعتقد أنه ينبغي أن أذهب".

تنهدت بحسرة.

"أتمنى ألا يكون الأمر شديد الخطورة. حتى الآن كانت ثلاثة سنتيجرامات من المورفين تكفي لإنقاذ حياته".

أحضرت له الخادمة معطفه المصنوع من الفراء، وبذهن شارد طبع قبلة على جبين ألبرتينا وأخرى على ثغرها، كأن كل ما حدث في الساعة الماضية قد طواه النسيان كلية، ثم خرج مسرعًا.

2

عندما وصل فريدولين إلى الشارع، فك أزرار المعطف. كان الثلج قد بدأ فجأة في الذوبان؛ والثلوج التي كانت تغطي الرصيف اختفت تقريبًا، وفي الهواء لمسة من أجواء الربيع. كان شارع شريفوجيل يبعد عن منزله الذي بجوار المستشفى العام مسيرة أقل من ربع ساعة، وسرعان ما وصل إلى البيت القديم. صعد الدَرج الحلزوني ذا الإضاءة الخافتة إلى الطابق الثاني وشد حبل الجرس. لكن قبل أن يتناهى إلى سمعه صوت الجرس العتيق الطراز، لاحظ أن الباب موارب، وبينما كان يشق طريقه عبر الردهة المظلمة نحو غرفة المعيشة، أدرك في التو أنه وصل بعد فوات الأوان. كان مصباح الكيروسين ذو المظلة الخضراء المتدلي من السقف المنخفض يلقي ضوءًا شاحبًا على أغطية الفراش، التي يرقد تحتها جسد ضامر بلا حراك.

كان فريدولين يعرف الرجل العجوز جيدًا لدرجة أنه خُيل إليه أنه يرى وجهه بوضوح، رغم أنه كان يقع خارج دائرة الضوء: الجبين

العالي، الخدان الضامران اللذان تنتشر فيهما التجاعيد، اللحية البيضاء كالثلج، الأذنان شديدتا القبح بشعراتهما البيضاء الخشنة.

كانت ماريان، ابنة المستشار، جالسة عند طرف الفراش، خائرة القوة وذراعاها تتدليان بارتخاء من كتفيها. وكانت الغرفة تفوح بمزيج من روائح الأثاث القديم، والأدوية، والنفط، والطبيخ، فضلاً عن أثر من رائحة ماء تواليت وصابون معطر. كما لاحظ فريدولين أيضًا تلك الرائحة الغامضة ذات الحلاوة المنفرة، التي تفوح من هذه الفتاة الشاحبة التي ما زالت شابة، والتي أخذت تذبل تدريجيًا تحت وطأة شهور وسنوات من الواجبات المنزلية الشاقة، والتمريض، والسهر بجانب المريض.

عندما دخل الطبيب، رفعت عينيها نحوه، لكنه لم يستطع أن يتبين، في هذا الضوء الشاحب، ما إذا كان وجهها قد احمر خجلاً، كعادتها دائمًا كلما ظهر أمامها. وعندما همت بالنهوض أوقفها بحركة من يده، فاكتفت بتحيته بايماءة من رأسها وعينيها الواسعتين الحزينتين. اتجه إلى رأس الفراش، وبطريقة آلية وضع يديه على جبين الميت وذراعيه الممددتين فوق أغطية الفراش في كمي قميص فضفاضين ومفتوحين. تهدلت كتفاه بطريقة تنم عن شيء من الحسرة، ودس يديه في جيبي معطفه، فيما راحت عيناه تجولان بأرجاء الغرفة حتى استقرتا في النهاية على ماريان. كان لها شعر أشقر غزير لكنه جاف، وعنق رشيق حسن التكوين رغم شحوبه الشديد وبعض التجاعيد الدقيقة، وشفتان رقيقتان مضمومتان بإحكام.

همس لها بنبرة يشوبها شيء من الارتباك: "حسنًا يا عزيزتي ماريان، لم تكوني غير مهيئة لما حدث".

مدت له يدها، فتناولها بحنو بين يديه واستفسر منها عن تفاصيل الأزمة القلبية القاتلة الأخيرة. أخبرته بما حدث بإيجاز وتركيز، ثم

أخذت تتحدث عن أيام أبيها الأخيرة، الأسهل نسبيًا، والتي لم يزُره فريدولين خلالها. سحب كرسيًا، وجلس قبالتها، وحاول أن يواسيها بالقول إن معاناة أبيها في أيامه الأخيرة لا بد أنها كانت طفيفة للغاية، مقارنة بما سبق. ثم سألها عما إذا كانت قد أبلغت أحدًا من أقاربها بنبأ الوفاة. أجابته "أجل"، فقد ذهبت مدبرة المنزل لإبلاغ عمها، ومن المتوقع أن يأتي الدكتور رودايجر في أية لحظة. وأردفت قائلة "خطيبي"، دون أن تنظر في عينيه مباشرة.

أومأ فريدولين برأسه. لقد قابل الدكتور رودايجر مرتين أو ثلاث مرات خلال هذا العام في منزل المستشار. كان الشاب الأشقر الشاحب -مدرس التاريخ في جامعة فيينا- يتمتع برشاقة مذهلة، وله لحية شقراء قصيرة، ويرتدي نظارة طبية. وكان قد ترك لديه انطباعًا طيبًا للغاية، لكن بخلاف ذلك، لم يثر اهتمامه على الإطلاق. لو كانت ماريان عشيقته، فمن المؤكد أنها كانت ستبدو بصورة أفضل مما هي عليها الآن. ولكان شعرها أقل جفافًا، وشفتيها أكثر حمرةً وامتلاءً.

أخذ يفكر: تُرى كم تبلغ من العمر؟ عندما جئتُ إلى هذا المنزل للمرة الأولى، قبل ثلاث أو أربع سنوات، كانت في الثالثة والعشرين. في ذلك الوقت كانت أمها لاتزال على قيد الحياة وكانت هي أكثر مرحًا من الآن. بل إنها كانت تتلقى دروسًا في الغناء لفترة من الوقت. سوف تتزوج بهذا المدرس إذًا! لماذا يا تُرى؟ من المؤكد أنها ليست مغرمة به، ولا يبدو أيضًا أنه واسع الثراء. أي نوع من الزيجات هذه؟ مثل آلاف من الزيجات الأخرى ربما. لكن لا شأن لي بذلك. من المحتمل جدًا أنني لن أراها أبدًا بعد اليوم، فلم يعد لدي ما أفعله في هذا المكان. حسنًا، كثير ممن اعتنيتُ بهم ذهبوا أيضًا بتلك الطريقة نفسها.

بينما كانت تلك الأفكار تطوف بعقله، بدأت ماريان تتحدث عن أبيها بحماس شديد، كأن موته قد حوله فجأة إلى شخص مثير

للاهتمام أكثر مما كان عليه. إذًا فقد كان في الرابعة والخمسين فقط من العمر؟ حسنًا، لقد كانت حياته مليئة بالشدائد والإحباطات؛ كانت زوجته مريضة على الدوام، وأحوال ابنه تثير الحسرة والأسى! ماذا؟ ألديها أخ؟ بالتأكيد، وقد حدثت الدكتور عنه ذات مرة. كان أخوها يعيش الآن في مكان ما بالخارج. وهناك لوحة رسمها وهو في الخامسة عشرة، معلقة الآن في غرفة ماريان، تصور ضابطًا يهبط تلاً على صهوة جواده. وكان أبوها يتظاهر دائمًا بعدم رؤيتها رغم أنها ليست سيئة. لو أن أخاها قد أُتيحت له الفرصة، لربما أصبح شخصًا ذا شأن.

فكر فريدولين: أية إثارة تتكلم بها، وأي بريق في عينيها! هل هي مصابة بالحمى؟ محتمل جدًا. لقد فقدت الكثير من وزنها. ربما كانت مريضة بالسل.

واصلت حديثها، لكن بدا له أنها لا تدرك جيدًا ما تقوله. لقد مضت اثنا عشر عامًا على رحيل أخيها عن المنزل. والواقع، أنها كانت لا تزال طفلة عندما اختفى. والمرة الأخيرة التي وصلهم شيء من طرفه كانت قبل أربعة أو خمسة أعوام، في الكريسماس، حين كان يقيم في مدينة صغيرة في إيطاليا، من الغريب أنها نسيت اسمها. واصلت كلامها على هذا المنوال لبعض الوقت، بطريقة تكاد تخلو من أي اتساق. ثم توقفت فجأة، وجلست في مكانها صامتة، مسندة رأسها بين يديها.

كان فريدولين يشعر بالتعب، وبالضجر أكثر من التعب. كان ينتظر بلهفة مجيء أحد ما، أقاربها، أو خطيبها. خيم على الحجرة صمت مقبض، وبدا له أن الميت قد انضم إلى هذا الصمت، عن عمد، وببهجة شريرة.

ألقى نظرة جانبية على الجثمان، ثم قال: "في كل الأحوال، يا آنسة ماريان، ووفقًا للوضع الحالي، من حسن الحظ أنه لن يتعين عليكِ البقاء في هذا البيت لفترة طويلة."

رفعت رأسها قليلاً، لكن دون أن تنظر إليه، فتابع كلامه: "أظن أن خطيبك سيحصل قريبًا على درجة الأستاذية. فكلية الفلسفة تتيح فرصًا للترقي أفضل مما لدينا في كلية الطب."

وراح يفكر أنه، قبل سنوات مضت، كان يطمح هو أيضًا إلى العمل في السلك الأكاديمي، لكن لأنه كان يريد عملاً يدر دخلاً مريحًا، استقر رأيه في نهاية المطاف على ممارسة الطب. وفجأة شعر أنه، مقارنة بالدكتور رودايجر، هذا الشخص النبيل، كان هو مجرد شخص تافه خامل الذكر.

قالت ماريان بنبرة فاترة: "سوف ننتقل من هذا المنزل عما قريب؛ لقد حصل على وظيفة في جامعة جوتنجن".

قال فريدولين "أوه"، وكان على وشك أن يهنئها، لكن بدا له ذلك غير ملائم لأجواء اللحظة. اختلس النظر إلى النافذة الموصدة، ودون أن يطلب إذنًا، مستغلاً المزايا التي تمنحها له مهنته كطبيب، فتح مصراعي النافذة ليسمح للهواء النقي بالدخول إلى الحجرة. لقد صار الجو أكثر دفئًا وأشبه بطقس الربيع، وبدا أن النسيم يحمل معه شيئًا من عطر الغابات البعيدة التي بدأت تستيقظ.

عندما استدار إلى الحجرة، رأي عيني ماريان مثبتتين عليه بنظرة متسائلة. فاقترب منها وقال: "أتمنى أن يكون الهواء النقي مفيدًا لكِ. لقد صار الجو دافئًا تمامًا، والليلة الماضية...". كان على وشك أن يقول: عدنا بالسيارة إلى البيت بعد الحفل التنكري وسط عاصفة ثلجية، لكنه عدَّل الجملة بسرعة وتابع كلامه: "الليلة الماضية كانت الشوارع لا تزال مغطاة بطبقة من الثلج بلغ ارتفاعها قدمًا ونصف القدم".

لكنها بالكاد سمعت ما قاله. تبللت عيناها، وانهمرت الدموع على خديها في قطرات كبيرة، ودفنت رأسها بين كفيها مرة أخرى. فوجد نفسه، رغمًا عنه، يضع يده على رأسها ويمسدها في حنو. كان بوسعه أن يشعر أن جسدها بدأ يرتجف، ونشيجها الذي كان خافتًا في البداية، بدأ يعلو تدريجيًا حتى خرج تمامًا عن السيطرة في نهاية المطاف. وفجأة دون مقدمات، انزلقت من كرسيها وألقت بنفسها تحت قدميه، ثم طوقت ركبتيه بذراعيها وألصقت وجهها بهما. رفعت نحوه عينين واسعتين، بهما حزن وحشي، وهمست بلهفة وحرارة: "لا أريد أن أترك هذا المكان. حتى وإن كنتَ لن تعود إليه أبدًا مرة أخرى، حتى وإن كنتُ لن أراك أبدًا مرة أخرى، فأنا أريد، على الأقل، أن أعيش بالقرب منك".

حرك كلامها مشاعره أكثر مما أثار دهشته، لأنه كان يعرف طوال الوقت أنها كانت تحبه، أو أنها تتخيل ذلك.

قال بصوت خافت: "من فضلك.. انهضي يا ماريان"، ثم انحنى فوقها وأنهضها برقة.

فكر: إنها مصابة بحالة هيستيرية بالطبع. ثم اختلس النظر إلى أبيها الميت وفكر: تُرى هل يسمع كل شيء؟ لعله ليس ميتًا حقًا. ربما كان كل من يقضون نحبهم، يدخلون فقط في غيبوبة خلال الساعات الأولى من موتهم.

طوقها بذراعيه واحتضنها بتردد شديد، ثم وجد نفسه، رغمًا عن إرادته تقريبا، يطبع قبلة على جبينها، وبدا له هذا التصرف شديد السخف نوعًا ما. مرت بخاطره ذكرى خاطفة لرواية كان قد قرأها قبل أعوام، تحكي عن شاب، لا يزال صبيًا تقريبًا، تعرض للإغواء، بل وفعليًا للاغتصاب، من جانب إحدى صديقات أمه، على فراش موت أمه. وفي الوقت نفسه، وجد فريدولين نفسه يفكر في زوجته، لا

يدري لماذا، وأدرك أنه يشعر بشيء من المرارة والعداء الغامض، تجاه ذلك الرجل الذي يحمل حقيبة يد صفراء ويهبط سلالم الفندق في الدنمارك.

احتضن ماريان بقوة أكثر لكن دون أن يشعر تجاهها بأدنى عاطفة. فقد كان شعرها جاف فقد بريقه، وهناك رائحة غير محددة ذات حلاوة منفرة، تفوح من فستانها الذي لم يتعرض للهواء منذ وقت طويل، وكان كل هذا يثير في نفسه شيئًا من النفور.

في هذه اللحظة، دق جرس الباب الخارجي مرة أخرى، فتنفس الصعداء. قبل يدها في عجالة، كأنه يعبر عن امتنانه، وذهب لكي يفتح الباب. كان الدكتور رودايجر واقفًا هناك، يرتدي معطفًا ذا لون رمادي داكن، ويحمل مظلة في يده، وعلى وجهه تعبير جاد ورصين ملائم لأجواء اللحظة. حيا الرجلان أحدهما الآخر تحية حارة جدًا أكثر مما تستدعيه علاقتهما السطحية العابرة، ثم دخلا إلى الحجرة. وبعد أن ألقى نظرة مرتبكة على المتوفي، عبر رودايجر عن تعازيه لماريان، بينما اتجه فريدولين إلى الحجرة المجاورة لكي يحرر شهادة الوفاة الرسمية. عندما رفع درجة إضاءة مصباح الغاز الموضوع فوق سطح المكتب، وقعت عيناه على لوحة الفارس بزيه الرسمي الأبيض، وهو يهبط التل مسرعًا على صهوة جواده، شاهرًا سيفه، لملاقاة عدو غير مرئي. كانت اللوحة معلقة على الحائط داخل إطار ضيق ذي لون ذهبي كامد، وتشبه إلى حد كبير لوحة ليثوجراف بالأسود والأبيض متواضعة المستوى.

بعد أن انتهى من ملء بيانات شهادة الوفاة، عاد فريدولين إلى الحجرة حيث وجد الخطيبين جالسين، ممسكين بأيدي بعضهما، بجوار فراش المستشار الميت.

دق جرس الباب الخارجي مرة أخرى، فقام الدكتور رودايجر ليفتحه. وفي أثناء غيابه قالت ماريان، بصوت لا يكاد يُسمع، وعيناها تنظران إلى الأرض: "أحبكَ". وردّ عليها فريدولين بأن نطق اسمها برقة. ثم عاد رودايجر بصحبة شخصين مسنين، عم ماريان وعمتها، تبادلا معها بعضًا من تلك الكلمات التي تُقال في هذه المناسبات، بالحرج المعتاد في حضرة شخص قضى نحبه للتو. وفجأة بدت له الغرفة مزدحمة بالمعزين، فشعر فريدولين أنه لم تعد ثمة حاجة لوجوده، فاستأذن في الذهاب. أوصله رودايجر إلى الباب وعبر له، في كلمات قليلة، عن امتنانه ورغبته في أن يلتقيا مجددًا في القريب العاجل.

3

عندما وقف فريدولين في الشارع أمام البيت، رفع عينيه نحو النافذة التي كان قد فتحها بنفسه قبل قليل. كان مصراعاها يتأرجحان قليلاً في رياح بداية الربيع، وبدا له أن كل الأشخاص الذين ما زالوا قابعين وراءها في الأعلى، الأحياء منهم والأموات، بدوا له جميعًا غير حقيقيين وأقرب إلى الأشباح. كان يشعر أنه هرب من شيء ما، ليست مغامرة بقدر ما هي لعنة كئيبة كان يجهد لإبطال تأثيرها. ساوره شعور غريب بعدم الرغبة في العودة إلى المنزل. كان الثلج الذي يغطي الشوارع قد ذاب تمامًا، إلا أكوام صغيرة من البياض المتسخ تراكمت على جانبي الرصيف. ارتجفت ألسنة اللهب لمصابيح الغاز ودقت ساعة إحدى الكنائس بالجوار معلنة الحادية عشرة. قرر فريدولين أن يقضي نصف ساعة في مقهى يقع في ركن هادئ بالقرب من منزله، قبل أن يأوى إلى الفراش. وفي أثناء اجتيازه حديقة "راتهوس بارك"، لاحظ وجود أزواج من العشاق، منتشرين هنا وهناك، فوق المقاعد الغارقة في الظلال، مشبوكي الأيدي، كأن الربيع قد جاء بالفعل، ولا

وجود لأي أخطار تكمن متربصة بهم في الهواء الدافئ، المخادع. وفوق أحد المقاعد كان يرقد متشرد يرتدي أسمالاً بالية، ويغطي وجهه بقبعته.

فكر فريدولين: لنفترض أنني أعطيته نقودًا لكي يقضي ليلته في أحد الأماكن، لكن بِمَ سيفيده هذا؟ عندها سيكون عليّ أن أتكفل بنفقات الليلة التالية أيضًا، وإلا فإن الأمر برمته سيكون لا معنى له على الإطلاق، وفي النهاية قد يرتاب الناس في وجود علاقات إجرامية تربطني به.

راح يحث الخطى ليهرب بأسرع ما يمكن من كل مسؤولية وإغواء. سأل نفسه: ولماذا هو فقط؟ إن فيينا وحدها يوجد بها الآلاف من هؤلاء الشياطين البؤساء. من الواضح إذًا أنه يستحيل على المرء أن يمد يد المساعدة لهم جميعًا، أو أن يشغل باله بكل المعدمين التعساء!

في هذه اللحظة تذكر الرجل الميت الذي تركه وراءه للتو، فسرت رعدة في جسده؛ والواقع أنه شعر بغثيان خفيف عندما فكر في أن التحلل والتعفن، وفقًا للقوانين السرمدية، لا بد أنهما بدآ بالفعل يمارسان عملهما في الجسد الضامر الراقد تحت البطانية الفلانيل ذات اللون البني.

كان سعيدًا بأنه ما زال حيًا، وأن تلك الأشياء الكريهة، وفقًا لكل الاحتمالات، لا تزال بعيدة عنه كل البعد. كان في الحقيقة لا يزال في ريعان الشباب، ولديه زوجة جذابة وساحرة، وبوسعه، إن أراد، أن يضيف إليها العديد من النساء أيضًا، رغم أن مثل تلك العلاقات تتطلب، بكل تأكيد، وقت فراغ أكثر مما هو متاح له حاليًا. ثم تذكر أنه سيكون عليه الحضور إلى عنبره بالمستشفى في الثامنة صباحًا، ثم زيارة مرضاه في منازلهم من الحادية عشرة إلى الواحدة، ثم العمل في المكتب من الثالثة إلى الخامسة، بل وحتى في المساء سيكون عليه

أن يـزور العديـد مـن مرضـاه في منازلهـم وفقًـا لمواعيـد سـابقة. حسـنًا، تمنـى فقـط أن يمـر بعـض الوقـت قبـل اسـتدعائه مـرة أخـرى في مثـل تلـك السـاعة المتأخـرة مـن الليـل.

بينـما كان يجتـاز ميـدان راتهـوس، الـذي كان يلتمـع بوميـض كامـد كالـذي ينبعـث مـن الميـاه الراكـدة، متجهًـا إلى منزلـه، تناهـت إلى سـمعه الأصـوات المكتومـة لخطـوات منتظمـة في البعيـد. ثـم رأى، عـلى مسـافة بعيـدة، مجموعـة صغـيرة مـن الطـلاب الأعضـاء في إحـدى الأخويـات، يـتراوح عددهـم مـن سـتة إلى ثمانيـة طـلاب، ينعطفـون عنـد الناصيـة متجهـين نحـوه. وعندمـا سـقط عليهـم الضـوء المنبعـث مـن أحـد مصابيـح الشـارع، أدرك مـن قلنسـواتهم الزرقـاء أنهـم أعضـاء في أخويـة أليمانيـا. فرغـم أنـه لم ينضـم إلى أيـة أخويـة في حياتـه، فقـد خـاض عـددًا مـن المبـارزات بالسـيف في زمانـه. وعندمـا فكـر في أيـام دراسـته، تذكـر عبـاءاتي الدومينـو الحمراويـن اللتـين أغريتـاه بالدخـول إلى أحـد الأكشـاك في حفـل الليلـة الماضيـة، ثـم تركتـاه وحيـدًا بطريقـة مخزيـة للغايـة.

كان الطـلاب قـد اقتربـوا منـه تمامًـا الآن وهـم يضحكـون ويتكلمـون بصـوت عـالٍ. ربمـا كان واحـد أو اثنـان منهـم مـن المستشـفى؟ بيـد أنـه كان مـن المسـتحيل أن يـرى وجوههـم بوضـوح في هـذا الضـوء الشـاحب، وكان عليـه أن يظـل قريبًـا تمامًـا مـن المنـازل كي لا يصطـدم بهـم. والآن مـروا وتركـوه وراءهـم إلا طالـب واحـد كان يسـير في المؤخـرة. فتـى طويـل القامـة يرتـدي معطفًـا مفتوحًـا ويضـع عصابـة عـلى عينـه اليـسرى، كان فيـما يبـدو قـد تخلـف وراءهـم، وارتطـم بـه عـن عمـد بكوعـه المرفـوع، وهـو مـا لا يمكـن أن يكـون قـد حـدث عفـوًا دون قصـد. فكـر فريدولـين: مـاذا دهـاه هـذا الفتـى؟ وتوقـف بطريقـة لا إراديـة. قطـع الآخـر خطوتـين ثـم اسـتدار. وقفـا للحظـة ينظـران أحدهـما إلى الآخـر، لا تفصـل بينهـما إلا مسـافة صغـيرة. وفجـأة اسـتدار فريدولـين مـرة أخـرى ومـضى في طريقـه. سـمع ضحكـة قصـيرة خلفـه؛ وتمنـى لـو اسـتطاع أن يتحـدى الفتـى

للمبارزة، لكنه شعر بقلبه يخفق بطريقة غريبة، تمامًا كما حدث في مرة سابقة، قبل اثني عشر أو أربعة عشر عامًا. يومها سمع طرقًا عاليًا على بابه على نحو غير عادي، وكانت بصحبته مخلوقة شابة وفاتنة لم تكن تمل أبدًا من الثرثرة عن خطيبها الغيور. لكن في حقيقة الأمر، لم يكن الشخص الذي أخذ يطرق بابه بتلك الطريقة المهدِّدة سوى ساعي البريد. وقد شعر الآن بقلبه يخفق بالطريقة نفسها التي خفق بها في تلك المرة. سأل نفسه: ما معنى هذا؟ ولاحظ أن ركبتيه ترتعشان قليلاً. هل أنا جبان؟ أوه! يا للهراء، راح يطمئن نفسه. لماذا يجب عليّ أن أذهب لمواجهة طالب مغمور، وأنا رجل في الخامسة والثلاثين، وطبيب ممارس، وزوج وأب لطفلة؟ تحدٍ رسمي! مساعدون! مبارزة! وربما تتسبب مثل تلك المواجهة الحمقاء في إصابتي بجرح في ذراعي يعجزني عن القيام بواجباتي المهنية؟ -أو أفقد عينًا؟- أو أُصاب حتى بتسمم في الدم؟ وفي غضون أسبوع ربما أجد نفسي في موضع الرجل القاطن بشارع شريفوجيل، ممددًا تحت بطانية فلانيل بنية اللون؟ جبان؟

لقد خاض ثلاث مبارزات بالسيف، بل وكان على استعداد لخوض مبارزة بالمسدسات، لم يكن إلغاؤها بناءً على طلب منه. وماذا عن مهنته؟ ثمة أخطار خفية تتربص به في كل مكان وفي كل الأوقات، غير أن المرء عادةً ما ينسى أمرها. كم مضى على تلك الواقعة، عندما سعل طفل مصاب بالدفتيريا في وجهه؟ ثلاثة أو أربعة أيام فقط لا غير. وعلى أية حال، فإن تلك الواقعة تنطوي على أخطار أكثر بكثير من تلك التي تنطوي عليها مبارزة تافهة بالسيوف، ومع ذلك فلم يشغل نفسه بها لحظة واحدة. حسنًا، لو حدث أن قابل هذا الفتى مرة أخرى، فمن الممكن ساعتها أن تُسوّى المسألة. إن قانون الشرف لا يُلزمه، بأي حال من الأحوال، أن يأخذ على محمل الجد مواجهة حمقاء مع أحد الطلاب، بينما هو في طريقه لأداء عمل من أعمال

الرحمة في بيت أحد مرضاه، أو عائد منه. لكن لو حدث، على سبيل المثال، أن التقى هذا الشاب الدنماركي الذي كانت ألبرتينا... أوه، يا للهراء، فيمَ كان يفكر؟ حسنًا، إن ما فعلته لا يقل سوءًا عما لو كانت عشيقته، بل وأسوا. نعم، فلتقع عينه ذات مرة على هذا الفتى في طريقه! أي بهجة سيشعر بها عندما يقف أمامه، وجهًا لوجه، في بقعة خالية من الأشجار وسط الغابات، ويصوب مسدسه إلى رأسه ذي الشعر الأشقر المصفف بعناية؟

اكتشف فجأة أنه تجاوز المكان الذي كان يقصده. وجد نفسه في شارع ضيق لم يكن به سوى حفنة نساء ذوات هيئة مريبة، يتسكعن في المكان، في محاولة بائسة لاصطياد الزبائن. أشبه بمشهد من عالم الأشباح، راح يفكر. وبنظرة إلى الوراء، بدا له الطلاب، بقلنسواتهم الزرقاء، غير حقيقيين هم أيضًا. والشيء نفسه بالنسبة إلى ماريان، وخطيبها، وعمها وعمتها، الذين تخيلهم جميعًا واقفين الآن، ممسكين بأيدي بعضهم حول فراش موت المستشار العجوز. وألبرتينا أيضًا، التي كان يستطيع أن يراها بعين خياله تغط في نوم عميق، وذراعاها مطويتان تحت رأسها، بل وحتى طفلته النائمة في سريرها النحاسي الضيق ذي اللون الأبيض، مكومة على نفسها، والمربية ذات الخدين الموردين والشامة على صدغها الأيسر.. بدوا جميعًا ينتمون إلى عالم آخر. ورغم أن تلك الفكرة أثارت في جسده رعدة خفيفة، فإنها بثت في نفسه الطمأنينة أيضًا، لأنها تعفيه فيما يبدو من كل مسؤولية، وتفكك كل الروابط التي تربط البشر بعضهم إلى بعض.

أوقفته إحدى الفتيات اللاتي كن يطفن بالمكان. كانت لا تزال صغيرة وجميلة، وجهها شديد الشحوب وشفتاها مصبوغتان بالأحمر. هي أيضًا بإمكانها أن تقوده إلى حتفه، لكن ليس بالسرعة نفسها. راح يفكر: هل هذا جبن أيضًا؟ أعتقد نعم في الحقيقة.

سمع وقع خطواتها ثم صوتها من خلفه: "ألن تأتي معي، يا دكتور؟".

استدار نحوها بطريقة لا إرادية. سألها: "كيف عرفتِ من أكون؟".

قالت: "ماذا؟ أنا لا أعرفك، لكن هنا في هذا الجزء من المدينة، الجميع دكاترة، أليس كذلك؟".

لم يكن قد أقام أي علاقة مع امراة من هذا النوع منذ أن كان طالبًا في المدرسة الثانوية، فهل كان الانجذاب الذي شعر به تجاه هذه الفتاة علامة على نكوص مفاجئ لفترة المراهقة؟ تذكر شخصًا كانت تربطه به علاقة سطحية، كان شابًا ذكيًا، ويُفترض أنه كان شديد البراعة في التعامل مع النساء. ذات مرة، بعد حفل راقص، جلس فريدولين معه على أحد المقاهي التي تظل مفتوحة طوال الليل، وعندما اقترح الشاب أن يذهب بصحبة إحدى الفتيات اللاتي يترددن بانتظام على المكان، نظر إليه فريدولين بدهشة، وعندها قال له الشاب: "على أية حال، هذه هي أفضل وأريح طريقة على الإطلاق.. وهؤلاء لسن، بأي حال من الأحوال، أسوأ نوع من الفتيات يمكن أن تقابله".

ولين: "ما اسمك؟".

حسنًا، ماذا تعتقد؟ ميزي، طبعًا". فتحت باب المنزل، ودلفت إلى الردهة، ووقفت تنتظره ليتبعها.

قالت له عندما لاحظت تردده: "هيا". دخل ووقف بجانبها. اصطفق الباب خلفه، فأحكمت إغلاقه، ثم أشعلت شمعة ومشت أمامه لتضيء له الطريق.

سأل نفسه: هل جننتُ؟ بالطبع لن أفعل أي شيء معها.

في حجرتها، كان هناك مصباح زيتي، رفعت درجة إضاءته. كان مكانًا لطيفًا جدًا ومعتنى به جيدًا. وعلى أي حال، كانت رائحته منعشة أكثر من رائحة بيت ماريان على سبيل المثال. لكن، بالطبع، لم يحدث أن وُجد هنا قط رجل عجوز مريض ظل طريح الفراش لشهور.

ابتسمت الفتاة، واقتربت من فريدولين بطريقة تخلو من أي وقاحة، لكنه أبقاها على مسافة منه بحركة رقيقة من يده. أشارت إلى كرسي هزاز سره كثيرًا أن يلقي بجسده عليه.

قالت الفتاة: "لا بد أنك متعب للغاية"، فأومأ برأسه موافقًا. وبينما أخذت تخلع ملابسها بلا عجالة، تابعت: "حسنًا، لا عجب في ذلك، بالنظر إلى كل تلك الأشياء التي ينبغي على رجل مثلك أن يقوم بها أثناء النهار. أما نحن فنهارنا أسهل بكثير".

لاحظ أن شفتيها ليستا مصبوغتين كما اعتقد، بل كانت حمرتهما طبيعية، فعبر لها عن إعجابه.

"لكن لماذا ينبغي أن أصبغ شفتي؟ كم أبلغ من العمر في اعتقادك؟".

أجاب بسرعة: "سنك عشرون؟".

قالت: "سبعة عشر"، ثم جلست على حِجره، وطوقت عنقه بذراعيها كطفلة.

فكر فريدولين: من في الدنيا يستطيع أن يتخيل أنني هنا الآن، في هذه الحجرة، في هذه اللحظة؟ أنا نفسي ما كان يمكن أن أتخيل هذا قبل ساعة واحدة، بل وقبل عشر دقائق من الآن. و.. لماذا؟ لماذا أنا هنا؟

كانت شفتاها تبحثان عن شفتيه، لكنه أبعد رأسه إلى الوراء. نظرت إليه بدهشة ممزوجة بالحزن وانزلقت من حِجره. أسف لذلك، لأنه كان يشعر في حضنها بحنان غامر يبعث على العزاء.

التقطت ثوبًا منزليًا أحمر كان معلقًا فوق نهاية السرير، ولبسته ثم طوت ذراعيها أمام صدرها بحيث صار جسدها مخفيًا بالكامل عن عينيه.

سألته دون أدنى سخرية، وبتهيب تقريبًا، كأنها كانت تبذل مجهودًا لكي تفهمه: "هل هذا يلائمك أكثر؟". لكنه بالكاد كان يعرف بمَ يجيبها.

قال لها: "أنتِ محقة، أنا مُتعب حقًا، وأجد متعة كبيرة في الجلوس هنا على هذا الكرسي الهزاز والإنصات إليكِ ببساطة. لكِ صوت جميل ورقيق، تحدثي إلي فحسب".

جلست على الفراش وهزت رأسها.

قالت بصوت خافت: "أنت ببساطة خائف"، ثم حدثت نفسها بصوت لا يكاد يُسمع: "هذا سيئ جدًا".

هذه الكلمات الأخيرة جعلت الدم يندفع بعنف في عروقه. مشى إليها، متشوقًا للمسها، وأخبرها أنه يثق بها، وكان صادقًا في هذا. طوقها بذراعيه، وراح يتودد إليها كحبيبة، كامرأة يعشقها، لكنها قاومته، حتى شعر بالخجل من نفسه واستسلم في نهاية المطاف.

أوضحت له: "لا يمكنك أبدًا أن تعرف. في لحظة أو أخرى، لا بد أن يتكشف الأمر ويظهر للعلن. أنت مُصيب تمامًا في خوفك. لو حدث شيء، ستصب عليّ لعناتك".

كانت حاسمة تمامًا في رفضها للنقود التي عرضها عليها بطريقة جعلته لا يلح عليها. وضعت وشاحًا صغيرًا من الصوف أزرق اللون حول كتفيها، ثم أشعلت شمعة لتضيء له طريق النزول، ونزلت معه وفتحت له الباب. قالت له: "لن أخرج مرة أخرى هذه الليلة". أمسك بيدها وقبلها بطريقة لا إرادية. فنظرت إليه بدهشة، وبفزع تقريبًا، ثم ضحكت، مرتبكة وسعيدة. قالت له: "كما لو كنتُ سيدة شابة من الطبقة الراقية".

انغلق الباب خلف فريدولين الذي سارع بتسجيل رقم الشارع في ذهنه، لكي يتمكن من إرسال بعض النبيذ والكعك للمسكينة الصغيرة في اليوم التالي.

4

في الوقت نفسه كان الجو قد صار أكثر اعتدالاً في الخارج، وانسابت في الهواء رائحة زكية آتية من المروج المكللة بالندى والجبال البعيدة، يحملها النسيم العليل إلى الشارع الضيق. سأل فريدولين نفسه: إلى أين سأذهب الآن؟ كأنه ليس من البديهي أن يعود إلى البيت ويأوى إلى فراشه. لكنه لم يستطع أن يقنع نفسه بالعودة. كان يشعر أنه مشرد بلا مأوى، منبوذ، منذ لقائه المزعج مع الطلاب... أم كان ذلك منذ أن أدلت ماريان باعترافها؟ لا، بل قبل ذلك؛ فمنذ حديثه مع ألبرتينا في المساء، أخذ يبتعد أكثر فأكثر عن وجوده اليومي العادي نحو عالم غريب ونائٍ.

راح يسير على غير هدى عبر الشوارع المظلمة، تاركًا النسيم يُطير شعره. وفي نهاية المطاف، حسم أمره واتجه إلى مقهى درجة ثالثة. كان مكانًا شاحب الإضاءة وليس واسعًا، لكن يسوده جو مريح، عتيق الطراز، ويكاد يكون خاليًا في هذه الساعة المتأخرة.

كان هناك ثلاثة رجال يلعبون الورق في أحد الأركان. والساقي الذي كان يتابعهم بعينيه ساعد فريدولين في خلع معطفه، ثم سجل طلباته ووضع أمامه على المائدة عددًا من الجرائد المصورة وصحف المساء. شعر فريدولين بمزيد من الطمأنينة نوعًا ما وبدأ يتصفح الجرائد. ومن حين لآخر كانت عيناه تتوقفان عند بعض الأخبار المتفرقة. في مدينة بإقليم بوهيميا، تم تحطيم لافتات الشوارع التي تحمل أسماء ألمانية. أُقيم مؤتمر في إسطنبول شارك فيه اللورد كرانفورد، لبحث إنشاء خط سكة حديد في آسيا الصغرى. شركة "بينيز & وينجربر" تعلن إفلاسها. حاولت العاهرة آنا تايجر، في نوبة غيرة، إلقاء حمض كبريتيك مركز على صديقها هيرمن دروبيزكي. في مساء الأربعاء، أُقيم المساء حفل عشاء في قاعة صوفيا بمناسبة "أربعاء الرماد". ماري ب، فتاة شابة تقيم في 28 شارع شونبرون، حاولت الانتحار بتناول كلوريد الزئبقيك. رغم ابتذالها وعاديتها، فإن كل تلك الوقائع، التافه منها والمحزن على حد سواء، بثت في نفسه شيئًا من الهدوء والطمأنينة. شعر بالأسف تجاه الفتاة الشابة، ماري ب. يا لحماقة أن يتناول المرء كلوريد الزئبقيك! في هذه اللحظة بالضبط، بينما هو جالس في المقهى مستمتعًا بالراحة والدفء، وبينما ألبرتينا تغط في نوم هانئ، والمستشار قد ذهب إلى مكان فيما وراء كل الآلام البشرية، كانت ماري ب، 28 شارع شونبرون، تتلوى تحت وطأة آلام لا تُصدق.

رفع بصره عن الجريدة، فالتقت عيناه بعيني الرجل الجالس قبالته. هل هذا ممكن؟ ناختيجال؟ كان هذا الأخير قد تعرف عليه بالفعل، فرفع يديه في دهشة ممزوجة بالسرور وانضم إليه على مائدته. كان ما زال شابًا، طويل القامة، عريض المنكبين، وليس شديد النحافة. كان له شعر طويل، أشقر، مجعد قليلاً بدأ ينتشر فيه الشيب، وشاربان متدليان على الطريقة البولندية. كان يرتدي معطفًا رماديًا، تظهر من تحته بدلة متسخة، وقميص مجعد به ثلاثة أزرار

من الماس المزيف، وياقة متغضنة، وربطة عنق بيضاء من الحرير متهدلة على صدره. كان جفناه محتقنين، كأنه لم ينم منذ عدة ليالٍ، لكن عينيه الزرقاوين كانتا تشعان بالبريق.

هتف فريدولين: "أنت هنا في فيينا يا ناختيجال؟".

قال ناختيجال بلكنة بولندية ناعمة، وخُنَّة يهودية خفيفة: "ألم تكن تعرف؟ كيف فاتك هذا، وأنا شخص شهير جدًا؟". وقهقه بأريحية، ثم جلس قبالة فريدولين.

"ماذا؟ هل عُينتَ أستاذًا للجراحة دون أن أعلم؟".

أطلق ناختيجال ضحكة أعلى من السابقة: "ألم تسمعني الآن، قبل دقيقة بالضبط؟"

"ماذا تعني بسمعتك؟ آه، بالطبع". فجأة خطر بباله أن أحدهم كان يعزف على البيانو عندما دخل إلى المقهى؛ والواقع، أنه عندما اقترب من المقهى تناهت إلى سمعه أصوات موسيقى صادرة من أحد الأقبية. هتف فريدولين: "إذًا كنتَ أنت الذي يعزف؟".

قال ناختيجال ضاحكًا: "أنا بنفسي".

أومأ فريدولين. آه، بالطبع، اللمسة ذات الحيوية العجيبة، النغمات العالية الغريبة، ولكنها رخيمة أيضًا، بدت جميعًا مألوفة له على الفور.

"هل تكرس وقتك بالكامل للعزف على البيانو؟".

تذكر أن ناختيجال ترك دراسة الطب نهائيًا بعد أن أدى الامتحان التمهيدي الثاني في مادة علم الحيوان، الذي اجتازه بنجاح رغم أنه تأخر سبع سنوات في التقدم إليه. وبعدها ظل لبعض الوقت يتسكع في المستشفى، وحجرة التشريح، والمعامل والفصول. برأسه الأشقر الذي يشبه رأس فنان، وياقته المتغضنة، وربطة عنقه المتهدلة

التي كانت بيضاء يومًا ما. كان شخصية جذابة جدًا، ذات شعبية، بالمعنى الطريف للكلمة. كان يحظي بقدر كبير من الحب، ليس من جانب زملائه فحسب، لكن أيضًا من جانب عدد كبير من أساتذته. كان ابنًا ليهودي يمتلك محلاً للجن في مدينة بولندية صغيرة، ترك وطنه في سن مبكرة وجاء إلى فيينا لدراسة الطب. ومنذ البداية كان المبلغ الذي يرسله إليه والداه تافهًا لا يُذكر، وسرعان ما توقف عن الوصول بانتظام. لكن ذلك لم يمنعه من الجلوس إلى المائدة المخصصة لطلبة الطب في "فندق ريدوف" الذي كان فريدولين يتردد عليه بانتظام. وقد اعتاد زملاؤه الموسرون أن يتناوبوا على دفع حسابه هناك، الواحد تلو الآخر. وفي بعض الأحيان، كانوا يعطونه أيضًا بعض الملابس، وكان يقبلها بسرور دون أي كبرياء زائفة. وكان قد تعلم العزف في مسقط رأسه على يد عازف بيانو، وفي أثناء دراسته في كلية الطب بفيينا التحق بالكونسرفتوار، حيث كانوا يرون فيه موسيقيًا موهوبًا له مستقبل واعد. لكن هنا أيضًا، لم يتحلّ ناختيجال بالجدية والمثابرة اللازمتين لتطوير موهبته الفنية بطريقة منهجية. وما لبث أن صار قانعًا تمامًا بالإعجاب الذي يراه في عيون زملائه ومعارفه، أو -بالأحرى- بالمتعة التي يمنحها لهم بعزفه. ولفترة من الوقت عمل عازفًا للبيانو في مدرسة للرقص بإحدى الضواحي.

وقد حاول زملاؤه في الدراسة ورفاقه على المائدة أن يقدموه إلى العائلات الكبيرة بصفته تلك، لكن في مثل هذه المناسبات كان يعزف ما يروقه ويختاره بنفسه فحسب. ولم تكن محادثاته مع الفتيات الشابات في هذه المناسبات تمر بلا عواقب دائمًا، واعتاد أن يشرب أكثر من طاقته. ذات مرة، بينما كان يعزف في حفل راقص في بيت أحد رجال البنوك الأثرياء، تسبب في إحراج العديد من الأزواج بكلمات إطراء غير لائقة، وانتهى به الأمر بأن راح يعزف لحن كانكان الجامح للغاية، ويغني أغنية فاضحة بصوته العالي الجهوري. وعندما وجه له

صاحب البيت توبيخًا عنيفًا، نهض ناختيجال، بغبطة ومرح، وعانقه. فاستشاط الآخر غضبًا، ورغم كونه يهوديًا مثله، فقد وجه له سيلاً من الشتائم الشائعة. وفي الحال رد ناختيجال بتسديد لكمة إلى أذنه، وكانت تلك هي النهاية الحاسمة لعمله في بيوت العائلات الكبيرة في المدينة. لكن بصفة عامة، كان سلوكه أفضل في الدوائر الضيقة، رغم أنه أحيانًا عندما كان يتأخر به الوقت في أحد الأماكن، كان يتعين إخراجه منه بالقوة. لكن في صباح اليوم التالي يكون الأمر برمته قد نُسي وتم الصفح عنه. وذات يوم، بعد تَخرُج كل أصدقائه بفترة طويلة، اختفى من المدينة دون كلمة واحدة. ولعدة شهور أخذ يرسل إليهم بطاقات بريدية من عدة مدن روسية وبولندية. وذات مرة ذكّر فريدولين، الذي كان أحد أصدقائه المفضلين، بوجوده ليس ببطاقة بريدية فقط، بل بطلب مبلغ متواضع من المال أيضًا، دون إبداء أية أسباب. أرسل فريدولين المبلغ على الفور، لكنه لم يتلقَ منه قط كلمة شكر واحدة أو أي علامة تدل على أنه ما زال على قيد الحياة.

لكن في هذه اللحظة، بعد مرور ثمان سنوات، في الواحدة إلا الربع صباحًا، أصر ناختيجال على دفع دينه. فتناول من جيبه محفظة رثة وأخرج منها المبلغ المطلوب بالضبط. وعندما لاحظ فريدولين أن المحفظة محشوة بالأوراق النقدية، تقبل النقود بضمير مرتاح.

سأله بابتسامة ليتأكد: "هل تسير أمورك على ما يرام؟".

أجاب ناختيجال: "لا أستطيع الشكوى". ثم وضع يده على ذراع فريدولين وتابع: "لكن أخبرني، لماذا أنت هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟".

شرح له فريدولين أنه كان بحاجة إلى فنجان قهوة بعد زيارة لأحد مرضاه، لكنه لم يخبره، ولا يدري لماذا، أنه لم يجد مريضه على قيد

الحياة. ثم أخذ يتحدث بطريقة شديدة العمومية عن مسؤولياته في المستشفى وعيادته الخاصة، وذكر أنه سعيد في زواجه، ولديه طفلة في السادسة من عمرها.

وأخبره ناختيجال بدوره أنه أمضى هذا الوقت في العمل كعازف بيانو في جميع أنواع المدن والقرى، في بولندا ورومانيا وصربيا وبلغاريا، تمامًا كما خمن فريدولين. ولديه زوجة وأربعة أطفال يعيشون في ليمبيرج، قال هذا وهو يضحك من أعماق قلبه، كأن ثمة شيئًا مبهجًا بطريقة غير عادية في أن يكون لديك أربعة أطفال، يعيشون جميعًا في ليمبيرج، وجميعهم من المرأة نفسها. وقد جاء إلى فيينا في الخريف الماضي بعد أن انهارت الفرقة المسرحية التي كان يعمل معها فجأة. والآن يعزف في أي مكان وكل مكان، ويقبل كل ما يُعرض عليه، حتى إنه أحيانًا يعزف في بيتين أو ثلاثة بيوت مختلفة في الليلة الواحدة. على سبيل المثال، هناك بالأسفل في هذا القبو، وهو مكان ليس أنيقًا على الإطلاق كما أشار، وليس في الحقيقة سوى صالة بولينج، وأصحابه أناس تحوطهم الشبهات. وقال: "لكن عندما يكون عليك إعالة أربعة أطفال وزوجة في ليمبيرج..."، ضحك مرة أخرى، وإن كان ليس بنفس المرح السابق، وأضاف: "لكن أحيانًا تكون لدي ارتباطات خاصة". وإذ لاحظ أن فريدولين يبتسم كأنه تذكر شيئًا ما تابع: "ليس فقط في بيوت رجال البنوك وما شابه، لكن في جميع أنواع الدوائر أيضًا، حتى الكبيرة منها، العلنية والسرية على حد سواء".

سأله فريدولين: "سرية؟".

نظر ناختيجال أمامه مباشرة بمزيج من الحزن والدهاء، وقال: "سوف يرسلون في استدعائي مرة أخرى خلال دقائق".

"ماذا، هل ستعزف في مكان آخر هذه الليلة؟"

"نعم، يبدأون هناك في الثانية".

"لا بد أنه مكان راقٍ للغاية".

قال ناختيجال ضاحكًا: "نعم ولا"، ثم عاد إلى جديته على الفور.

استفسر فريدولين بفضول: "نعم ولا؟".

انحنى ناختيجال عبر المائدة، وقال: "سأعزف اليوم في أحد المنازل الخاصة، لكني لا أعرف من يكون صاحبه".

سأله فريدولين باهتمام متزايد: "إذًا أنت ستعزف هناك للمرة الأولى؟".

"لا، إنها المرة الثالثة، لكن ربما ستكون في بيت مختلف هذه المرة أيضًا".

"لا أفهم".

قال ناختيجال ضاحكًا: "ولا أنا، لكن من الأفضل ألا تلقي مزيدًا من الأسئلة".

ألمح فريدولين: "أوه، فهمت".

"لا، أنت مخطئ. ليس الأمر كما تعتقد. لقد رأيتُ الكثير في حياتي. ثمة أشياء لا تصدق يمكن أن تراها في مثل تلك المدن الصغيرة، خاصة في رومانيا، لكن هنا..."، ثم أزاح الستارة الصفراء عن النافذة، ونظر إلى الشارع في الخارج وقال محدثًا نفسه: "لم تأتِ بعد". ثم استدار نحو فريدولين وأوضح له: "أقصد العربة. دائمًا ما تأتي عربة لتأخذني، كل مرة عربة مختلفة".

قال فريدولين مؤكدًا: "أنت تثير فضولي بشدة يا ناختيجال".

قال ناختيجال بعد صمت قصير: "أنصت إليّ، أتمنى لو استطعتُ أن أرتب الأمر. لكن كيف لي أن أفعل ذلك؟"، وفجأة انفجر قائلاً: "هل لديك ما يكفي من الشجاعة؟".

قال فريدولين بنبرة عضو في أخوية تعرض للإهانة: "هذا سؤال غريب!".

"لا أقصد ذلك".

"حسنًا، ماذا تقصد إذًا؟ لماذ ينبغي أن تكون على قدر كبير من الشجاعة لحضور هذا الشيء؟ ماذا يمكن أن يحدث؟"، وأطلق ضحكة قصيرة تنم عن الاستخفاف.

"لا شيء يمكن أن يحدث لي. في أفضل الأحوال ستكون تلك هي المرة الأخيرة. لكن ربما ستكون كذلك في كل الأحوال". توقف عن الكلام ونظر مرة أخرى إلى الخارج من خلال فتحة الستارة.

"حسنًا، أين مكمن الصعوبة إذًا؟".

سأله ناختيجال كأنه عائد من حلم: "ماذا قلتَ؟".

"أخبرني ببقية القصة، الآن وقد بدأتها بالفعل. حفل سري؟ اجتماع مغلق؟ لا يُسمح إلا بدخول من يحملون بطاقات دعوة؟".

"لا أعرف. المرة السابقة كان هناك ثلاثون شخصًا، والمرة الأولى ستة عشر فقط".

"حفل راقص؟".

"بالطبع حفل راقص". وبدا نادمًا لكونه تحدث في الأمر من الأصل.

"وأنت الذي سيعزف الموسيقى في هذه المناسبة؟".

"ماذا تعني بالمناسبة؟ لا أدري شيئًا عن المناسبة. أنا أعزف فحسب، بعينين معصوبتين".

"ناختيجال، ماذا تقصد؟".

أطلق ناختيجال تنهيدة قصيرة ثم تابع: "لكن عيني، لسوء الحظ، لا تكونان معصوبتين بالكامل، ولهذا أستطيع من حين لآخر أن أرى شيئًا ما. بوسعي أن أرى من خلال المنديل الحرير الأسود الذي يغطي عيني في المرآة التي أمامي...". ثم توقف عن الكلام.

قال فريدولين بازدراء ونفاد صبر، لكن وهو يشعر بإثارة غريبة، "بكلمات أخرى، إناث عرايا".

أجابه ناختيجال بنبرة تنم عن الاستياء: "لا تقل إناث، بل نساء لم ترَ مثلهن في حياتك". تنحنح فريدولين قليلاً ثم سأله بعفوية: "كم يتكلف الدخول إلى هناك؟".

"هل تقصد تذاكر وما شابه؟ لا شيء من ذلك".

سأله فريدولين بشفتين مزمومتين وهو ينقر على المائدة بأصابعه: "حسنًا، كيف يدخلون إذًا؟".

"عليك أن تعرف كلمة السر، وفي كل مرة هناك واحدة جديدة".

"وما كلمة السر هذه الليلة؟".

"لا أعرف بعد. سوف يخبرني بها الحوذي".

"خذني معك يا ناختيجال".

"مستحيل؛ هناك خطورة شديدة في ذلك".

"لكن قبل دقيقة واحدة كنتَ بنفسك تتحدث... عن استعدادك... أعتقد أنك تستطيع تدبر الأمر جيدًا".

رماه ناختيجال بنظرة متفحصة ثم قال: "سيكون من المستحيل تمامًا أن تذهب بملابسك العادية، لأن الجميع هناك، رجالاً ونساءً، يرتدون الأقنعة. ولأنه لا توجد معك الآن ملابس تنكرية، فلا مجال

للحديث عن الذهاب. ربما في المرة المقبلة، سأحاول أن أتدبر الأمر". ثم أرهف السمع، واختلس النظر إلى الخارج مرة أخرى عبر فتحة الستارة وقال وهو يتنهد بارتياح: "ها هي عربتي، وداعًا".

تعلق فريدولين بذراعه وقال: "لا يمكنك أن تذهب هكذا. ينبغي أن تأخذني معك".

"لكن يا عزيزي...".

"اترك الأمر لي. أعرف أن الأمر محفوف بالمخاطر، لكن ربما كان هذا بالضبط هو ما يثير اهتمامي".

"لكني أخبرتك بالفعل.. من دون الملابس والقناع...".

"هناك أماكن لتأجير الملابس التنكرية".

"في الواحدة صباحًا؟".

"أنصت إلي يا ناختيجال. هناك واحد من تلك الأماكن عند ناصية شارع ويكينبرج، أمرّ به عدة مرات في طريقي كل يوم". ثم أردف بانفعال متزايد: "ستنتظر هنا لمدة ربع ساعة أخرى يا ناختيجال. وفي الوقت نفسه سوف أذهب لأجرب حظي. ربما كان صاحب المحل يسكن في المبنى نفسه، وإلا فسوف أكف ببساطة عن المحاولة هذه الليلة. دع الأقدار تقرر ما سيكون. هناك مقهى في المبنى نفسه أعتقد أن سمه مقهى فيندوبونا. ستخبر الحوذي أنك نسيتَ شيئًا هناك، ثم تدخل إليه وستجدني في انتظارك بالقرب من الباب. وعندها تستطيع أن تعطيني كلمة السر ثم تعود إلى العربة. لو استطعتُ الحصول على الملابس سأستقل عربة أجرة وأتبعك على الفور. والباقي سوف يمضي من تلقاء نفسه. أعطيك كلمة شرف يا ناختيجال، في حال تعرضك لأي خطر، سوف أتحمل المسؤولية كاملةً".

حاول ناختيجال أن يقاطعه عدة مرات، لكن بلا جدوى.

ألقى ببعض على النقود على المائدة، ليدفع حسابه مع بقشيش سخي بدا ملائمًا لأجواء هذه الليلة، ثم انصرف.

في الخارج، كانت هناك عربة مغلقة، بها حوذي في ملابس سوداء بالكامل، وقبعة عالية من الحرير، جالس على الصندوق بلا حراك. فكر فريدولين في أنها تشبه عربات نقل الموتى، وأخذ يجري في الشارع حتى وصل خلال دقائق إلى المنزل الذي كان يبحث عنه. دق الجرس، واستفسر من الحارس عما إذا كان جيبيزر صاحب محل الملابس التنكرية يقيم في هذا المنزل، وتمنى في قرارة نفسه أن تأتي الإجابة بالنفي. لكن جيبيزر كان يعيش هناك بالفعل، في الطابق الذي يقع تحت المحل مباشرة. لم يبدُ أن الحارس قد فوجئ بهذا الطارق الليلي، وأخبر فريدولين، بعد أن نفحه بقشيشًا سخيًا رقق من طباعه، أنه لم يكن من غير المعتاد في أثناء فترة الكرنفال أن يأتي بعض الناس في مثل هذه الساعة المتأخرة لاستئجار ثياب تنكرية. من مكانه بالأسفل أضاء لفريدولين طريق الصعود بواسطة شمعة حتى وصل الطابق الثاني ودق جرس الباب. ففتحه له السيد جيبيزر بنفسه كأنه كان في انتظاره. كان رجلاً أعجف، أصلع الرأس، يرتدي ثيابًا عتيقة الطراز، عبارة عن منامة مزينة برسوم أزهار، ويعتمر قلنسوة تركية ذات شراشيب جعلته يبدو كأحمق عجوز على خشبة المسرح. طلب منه فريدولين ثيابًا تنكرية وأخبره أن السعر لا يهم، فأجابه السيد جيبيزر، بازدراء تقريبًا: "أنا أطلب سعرًا عادلاً، لا أكثر".

قاده إلى المحل في الطابق الأعلى عبر دَرج حلزوني. كان المكان يعبق بمزيج من روائح الحرير، والقطيفة، والعطور، والتراب، والأزهار الذابلة، وثمة التماعات فضية وحمراء تنبعث من الظلام المبهم. وفجأة، سطع عدد من المصابيح الكهربائية الصغيرة بين المقصورات المفتوحة المصطفة على جانبي ممر طويل وضيق، كانت نهايته غارقة في الظلام. كانت هناك أزياء من جميع الأنواع معلقة ذات اليمين وذات

اليسار. ثياب فرسان، وقضاة، وقرويين، وصيادين، وعلماء، ورجال من الشرق ومهرجين، على أحد الجانبين. وعلى الجانب الآخر، سيدات بلاط، وبارونات، وقرويات، ووصيفات، وغانيات. وكانت أغطية الرأس الخاصة بكل زي موضوعة على رف فوقها. شعر فريدولين أنه يسير في معرض لأشخاص مشنوقين على وشك أن يدعو أحدهم الآخر لمشاركته الرقص. وكان السيد جيبيزر يسير خلفه، فسأله أخيرًا: "هل تريد زيًا من طراز معين؟ لويس الرابع عشر، نيوكلاسيكي، ألماني قديم؟".

"أريد عباءة داكنة وقناعًا أسود، فقط لا غير".

في هذه اللحظة تناهى إلى سمعهما صوت صلصلة أكواب زجاجية من نهاية الممر. جفل فريدولين ونظر إلى صاحب المحل، كأنه شعر أن الأخير مدين له بإيضاح. إلا أن جيبيزر أخذ فقط يتلمس مفتاحًا كهربائيًا مخفيًا في مكان ما. فامتلأ الممر بضوء ساطع حتى نهايته، حيث كان بالإمكان رؤية مائدة صغيرة مغطاة بالأطباق، والأكواب، والزجاجات. قفز رجلان يرتديان كل منهما رداء أحمر لقاضٍ من العصور الوسطى، من فوق كرسيين بجوار المائدة، وفي اللحظة ذاتها توارت فتاة صغيرة رشيقة القد عن الأنظار. اندفع جيبيزر بخطوات واسعة إلى الأمام، ومد يده عبر المائدة وانتزع شعرًا مستعارًا أبيض من فوق رأس أحدهما. وفي ذات اللحظة، ظهرت فتاة شابة بارعة الجمال، لا تزال طفلة تقريبًا، ترتدي زي بييريت، وأخذت تتلوى خارجة من تحت المائدة، ثم جرت عبر الممر نحو فريدولين الذي أمسك بها بين ذراعيه. ألقى جيبيزر بالشعر المستعار على الأرض وأمسك بالقاضيين من ردائهما، ونادى على فريدولين: "أمسك لي جيدًا بهذه الفتاة". التصقت الفتاة بفريدولين كأنها متأكدة من أنه سيحميها. كان وجهها البيضاوي الصغير مغطى بالبودرة والعديد من علامات الحُسن. ومن نهديها الرقيقين يفوح مزيج من رائحة الورود والبودرة، وفي عينيها تلوح رغبة شيطانية.

صاح جيبيزر: "أيها السيدان، ستبقيان هنا حتى أستدعي الشرطة".

هتفا في دهشة: "ماذا دهاك؟"، وتابعا كأنما بصوت واحد: "لقد جئنا بناءً على دعوة من السيدة الشابة".

أرخى جيبيزر قبضته وسمعه فريدولين يقول: "سوف يكون عليكما تقديم تفسير لهذا. ألا تريان أن الفتاة معتوهة؟". ثم استدار إلى فريدولين، وقال له: "آسف لأني جعلك تنتظر".

أجابه فريدولين: "أوه، لا عليك".

كان يود أن يبقى، أو ربما كان من الأفضل حتى لو استطاع أن يأخذ الفتاة معه، لا يهم إلى أين -وأيًا كانت العواقب. نظرت إليه كالمسحورة بعينين مغويتين أشبه بعيني طفلة، فيما انخرط الرجلان في جدال حامٍ عند نهاية الممر. استدار جيبيزر نحو فريدولين وسأله بنبرة محايدة:

"هل كنتَ تريد رداء كاهن، وقبعة حاج وقناع؟".

قالت بييريت بعينين براقتين: "لا، يجب أن تعطي هذا السيد عباءة مبطنة بالفراء وسترة من الحرير الأحمر".

أجابها جيبيزر: "لا تتحركي من جانبي". ثم أشار إلى عباءة داكنة اللون معلقة بين جندي قَرْوَسْطيّ وسيناتور فينيسي، وقال: "هذه مقاسك تقريبًا وها هي القبعة. خذهما بسرعة".

ومرة أخرى احتج الرجلان الغريبان: "ينبغي أن تدعنا ننصرف في الحال، يا سيد شيبيزييه". ولاحظ فريدولين بدهشة النطق الفرنسي لإسم جيبيزر.

أجابهما صاحب المحل باشمئزاز: "مستحيل، سوف تتكرمان بالبقاء هنا حتى أعود".

وفي الوقت نفسه ارتدى فريدولين العباءة بسرعة وأحكم ربط الخيوط البيضاء. وناوله جيبيزر، الذي كان يقف على سلم ضيق، قبعة الحاج السوداء ذات الحافة العريضة، فوضعها على رأسه. لكنه فعل كل هذا دون إرادة منه، وهو يزداد اقتناعًا أن ثمة أخطارًا محدقة بيبريت، وأن واجبه يحتم عليه البقاء لمساعدتها. كان القناع الذي أعطاه له جيبيزر، والذي وضعه على وجهه في الحال ليجربه، يعبق برائحة غريبة وكريهة جدًا.

أمر جيبيزر الفتاة، وهو يشير إلى الدَرج: "سيري أمامي". استدارت بيبريت ولوحت بيدها مودعة بمرح يشوبه شيء من الحزن، فيما فريدولين يتابع بعينيه اتجاه نظرتها. كان الرجلان قد خلعا ثيابهما التنكرية، وارتدى كل منهما الآن بدلة سهرة وربطة عنق بيضاء، لكن ظل محتفظًا بالقناع الأحمر على وجهه. هبطت بيبريت الدَرج الحلزوني بخطوات خفيفة، وجيبيزر من ورائها، وتبعهما فريدولين في المؤخرة. وعندما وصلوا إلى حجرة الانتظار فتح جيبيزر بابًا يؤدي إلى الغرف الداخلية وقال لبيبريت: "اذهبي على الفور إلى السرير أيتها الفاجرة، وسوف آتي للحديث معك بمجرد أن أسوي المسألة مع هذين الرجلين بالأعلى".

وقفت بمدخل الباب، بيضاء ورقيقة، وهزت رأسها في حزن وهي تختلس نظرة إلى فريدولين الذي لمح بدهشة، في مرآة ضخمة بطول الحائط على اليمين، حاجًا أعجف بدا له أنه هو نفسه. وفي الوقت نفسه كان يعرف تمام المعرفة أنه لا يمكن أن يكون أحدًا غيره.

اختفت الفتاة وأحكم صاحب المحل العجوز إغلاق الباب خلفها. ثم فتح باب المدخل وأشار لفريدولين أن يسرع بالدخول إلى الردهة.

"حسنًا، بكم أنا مدين لك؟".

"لا عليك يا سيدي، يمكنك أن تدفع عندما تُعيدها. أنا أثق بك".

إلا أن فريدولين أبى أن يتحرك من مكانه، وقال: "أَقسِم لي إنك لن تمس الطفلة المسكينة بسوء".

"وما شأنك بهذا؟".

"لقد سمعتك تقول، قبل دقيقة واحدة، إن الفتاة معتوهة، والآن تصفها بالفاجرة. ثمة تناقض شديد في ذلك".

أجابه جيبيزر بطريقة مسرحية: "حسنًا، أليس العته والفجور هما الشيء نفسه في عيني الرب؟".

ارتعد فريدولين باشمئزاز، ثم قال: "أيًا يكن الأمر، هناك دائمًا طرائق ووسائل للتعامل مع هذا. أنا طبيب، وسوف نتحدث معًا غدًا في هذا الأمر".

ضحك جيبيزر باستهزاء دون أن يصدر عنه أي صوت. ثم سطع ضوء باهر في الردهة، وانغلق الباب الذي يفصل بينهما وأُقفل بالمزلاج في الحال. في أثناء هبوطه الدَرج، خلع فريدولين القبعة والعباءة والقناع ووضعها تحت ذراعه. وعندما وصل إلى الباب الخارجي فتحه له الحارس فرأى عربة نقل الموتى واقفة في الجهة المقابلة، والحوذي يجلس فوق صندوقه بلا حراك. كان ناختيجال على وشك مغادرة المقهى فجفل لرؤية فريدولين أمامه فجأة دون سابق إنذار.

"إذًا نجحت في الحصول على ملابس تنكرية؟".

"كما ترى بنفسك. ما كلمة السر؟".

"هل أنت مُصر على معرفتها؟".

"كل الإصرار".

"حسنًا إذًا، إنها الدنمارك".

مكتبة
t.me/soramnqraa

"هل جننتَ يا ناختيجال؟".

"جننتَ؟!".

"أوه، لا يهم. لقد ذهبتُ إلى شواطئ الدنمارك هذا الصيف. عُد إلى عربتك، لكن ليس بسرعة كبيرة، حتى أستطيع أن أستقل عربة أجرة على الناحية الأخرى من الشارع".

أومأ ناختيجال وأشعل سيجارة على مهل. عبر فريدولين الشارع بسرعة، وأشار لعربة أجرة بطريقة مرتجلة كأنه يؤدي مشهدًا هزليًا، وطلب إلى السائق أن يتبع عربة الموتى التي بدأت للتو تتحرك أمامه.

اجتازت العربة شارع ألسر، ثم سارت عبر شوارع جانبية مقفرة شاحبة الإضاءة، تحت جسر سكة حديد صوب الضواحي.

كان فريدولين يخشى أن يفقد السائق أثر العربة، لكنه كلما كان يخرج رأسه من النافذة المفتوحة، في الهواء الذي كان دافئًا بطريقة غير عادية، كان يراها دائمًا أمامه. كانت تسبقهم بمسافة صغيرة، والحوذي بقبعته الحرير السوداء العالية يجلس على صندوقه بلا حراك. فكر فريدولين في أنه من الممكن أن ينتهي هذا الأمر نهاية سيئة، وفي اللحظة نفسها تذكر رائحة الورود والبودرة المنبعثة من نهدي بييريت. وأخذ يتساءل: أي قصة غريبة وراء هذا كله؟ ما كان يجب أن أغادر؛ ربما كان هذا حتى خطأً فادحًا. تُرى أين أنا الآن؟

كانت الطريق تتلوى صاعدة بين عدد من الفيلات المتواضعة. فكر فريدولين أنه يستطيع الآن تحديد اتجاهاته. لقد اعتاد -قبل سنوات- أن يمر من هذه الطريق سيرًا على القدمين. لا بد أنها طريق جاليتزينبرج تلك التي يصعدونها الآن. وعلى يساره بالأسفل كان يستطيع أن يرى المدينة، غائمة المعالم في الضباب، لكنها تتلألأ بآلاف الأضواء. تناهى إلى سمعه هدير عجلات من الخلف، فنظر من

النافذة، ورأى عربتين تتبعان عربته. وقد سره ذلك، لأن من شأنه أن يبدد أي شكوك لدى سائق عربة الموتى تجاهه.

انعطفت العربة برجّة عنيفة في شارع جانبي، ونزلت إلى ما يشبه الوهدة بين أسيجة من الحديد، وجدران حجرية، وشرفات. وعندها أدرك فريدولين أن الوقت قد حان لارتداء ثيابه التنكرية. فخلع معطفه الفراء وارتدى رداء الكهنة بسرعة، تمامًا كما اعتاد أن يدخل ذراعيه في كُمي معطفه الكتان الأبيض كل صباح في عنبره بالمستشفى. انتابه شعور بالراحة حين فكر أنه لو سار كل شيء على ما يُرام، فلن تمضي سوى ساعات قليلة حتى يجد نفسه مجددًا بين أَسِرّة مرضاه، على استعداد لمد يد المساعدة.

توقفت عربة الأجرة. فكر فريدولين: ماذا لو لم أغادرها وعدتُ أدراجي على الفور؟ لكن إلى أين؟ إلى الصغيرة بييريت؟ إلى فتاة شارع بوشفيلد؟ أم إلى ماريان ابنة المتوفى؟ أم ربما إلى البيت؟

سرَت فيه رعدة خفيفة وقرر أنه قد يذهب إلى أي مكان ما عدا البيت. تساءل: هل لأنه أبعد تلك الأماكن؟ لا، لا أستطيع العودة إلى الوراء، عليّ أن أمضي في هذه الطريق حتى نهايتها، حتى وإن كان فيها هلاكي. ثم ضحك من نفسه، لاستخدامه كلمة كبيرة هكذا، لكنها كانت ضحكة خالية من البهجة.

رأى أمامه بوابة حديقة مفتوحة على مصراعيها. فيما غاصت عربة الموتى عميقًا في الوهدة، أو في الظلام الذي يشبه الوهدة. لا بد أن ناختيجال قد غادر العربة إذًا. قفز فريدولين بسرعة من عربة الأجرة وطلب إلى السائق أن ينتظره عند المنعطف مهما تأخر. وزيادة في التأكيد، دفع له مبلغًا طيبًا تحت الحساب ووعده بمبلغ كبير في رحلة العودة. اقتربت العربتان الأخريان، ولمح فريدولين خيال امرأة منتقبة

تخطو خارجة من العربة الأولى. ثم توجه إلى الحديقة وارتدى القناع. وكان ثمة درب ضيق، مُضاء بمصباح في البيت، يقود إلى المدخل.

انفتحت الأبواب أمامه، ووجد نفسه في رواق أبيض، ضيق. تناهى إلى سمعه صوت أُرْغُنّ، وجاء خادمان يرتديان كل منهما زيًا داكنًا، ويغطي وجهه بقناع رمادي، ووقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وقالا في صوت واحد: "كلمة السر؟" أجابهما: "الدنمارك." فأخذ أحدهما معطفه الفراء واختفى به في حجرة مجاورة، بينما فتح له الآخر بابًا. دخل فريدولين إلى حجرة خافتة الإضاءة ذات سقف منخفض، وجدرانها مغطاة بالكامل بالحرير الأسود. كانت هناك مجموعة يتراوح عددها من ستة عشر إلى عشرين شخصًا، يرتدون ملابس رهبان وراهبات، ويذرعون المكان جيئة وذهابًا، فيما ألحان كنائسية إيطالية أخذت تتصاعد بنعومة من مكان ما بالأعلى. وفي أحد الأركان كانت تقف مجموعة صغيرة مكونة من ثلاث راهبات وراهبين اثنين، راحوا يتابعونه بعيونهم للحظة، ثم أشاحوا بوجوههم على الفور، بطريقة تكاد تكون متعمدة. وعندما لاحظ فريدولين أنه الشخص الوحيد الذي يعتمر قبعة، خلعها على الفور، وراح يتمشى جيئة وذهابًا بأكبر قدر ممكن من اللامبالاة. اصطدم به راهب اصطدامًا خفيفًا، فأومأ له محييًا، لكن فريدولين استطاع أن يلمح نظرته الفاحصة، الثاقبة من وراء قناعه. كان جو الحجرة مشبعًا بعطر ثقيل، وغريب كأنه آتٍ من حدائق الجنوب. ومرة أخرى، مسته ذراع مسًا خفيفًا لكن هذه المرة كانت ذراع راهبة. ومثل بقية الراهبات، كانت تضع نقابًا يغطي وجهها، ورأسها وعنقها، ومن وراء خيوط قناعها السوداء التمع ثغرها بلون أحمر دموي. فكر فريدولين: أين أنا؟ وسط مجانين؟ متآمرين؟ هل هو اجتماع لإحدى الطوائف الدينية؟ هل من الممكن أن يكونوا قد دفعوا لناختيجال لكي يحضر لهم شخصًا غريبًا يتخذونه هدفًا لمزاحهم؟ لكن كل شيء هنا يبدو شديد الجدية، شديد الكثافة،

وشديد الغرابة لدرجة يستحيل معها أن يكون مجرد حفل تنكري هزلي. وفي هذه اللحظة، انضم صوت امرأة لأنغام الأُرغنّ وصدحت في الحجرة ألحان أغنية دينية إيطالية قديمة. وقفوا جميعًا ينصتون بلا حراك، وللحظة أسلم فريدولين نفسه للألحان المتصاعدة بروعة. وفجأة سمع وراءه صوتًا خافتًا يهمس له: "لا تلتفت وراءك. لا تزال أمامك فرصة للهرب. أنت لا تنتمي لهذا المكان. ولو انكشف أمرك ستواجه متاعب بالغة".

جفل فريدولين في فزع. وللحظة فكر في الانصراف، بيد أن الفضول والغواية والكبرياء كانت أقوى من كل هواجسه. راح يفكر: الآن وقد قطعتُ هذا الشوط الطويل، لم أعد أبالي بما سيحدث. ثم هز رأسه رفضًا دون أن يلتفت وراءه.

همس له الصوت من وراءه: "ينبغي أن أشعر بأسف بالغ تجاهك". التفت ونظر إليها، فرأى ثغرها ذا اللون الأحمر الدموي يلتمع تحت الخيوط، وعينيها الداكنتين مثبتتين عليه. قال بصوتٍ بطولي بالكاد تعرف فيه على صوته: "سوف أمكث"، ثم أشاح بوجهه مرة أخرى.

كانت الأغنية تصدح الآن في أرجاء الحجرة؛ والأرغن يعزف لحنًا يمكن أن يوصف بأي شيء إلا بالمقدس، كان لحنًا أرضيًا شهوانيًا مجلجلاً. وإذ راح فريدولين يتلفت حوله رأى أن كل الراهبات قد ذهبن ولم يبقَ إلا الرهبان. وفي الوقت نفسه تغير الصوت الذي يغني، فراح يعلو بطريقة فنية بارعة، من طبقته المنخفضة الرصينة إلى نغمة عالية مفعمة بالبهجة. وبدلاً من الأرغنّ صدح البيانو فجأة بأنغام أرضية جريئة، تعرف فيها فريدولين في الحال على لمسات ناختيجال الجامحة الملتهبة. بينما صوت المرأة، الذي كان قبل لحظة واحدة مفعمًا بالجلال والوقار، بدا كأنه قد اخترق السقف بانفجارة أخيرة شهوانية وجامحة، متلاشيًا في اللانهاية. انفتحت أبواب يمينًا ويسارًا، وعلى أحد الجانبين تعرف فريدولين على الملامح الغائمة لناختيجال؛ كانت الغرفة

المقابلة تتلألأ بضوء باهر، حيث وقفت النساء بلا حراك. كانت كل منهن ترتدي نقابًا داكنًا يغطي رأسها ووجهها وعنقها، وتضع قناعًا أسود على عينيها، لكن فيما عدا ذلك كن عرايا بالكامل. راحت عينا فريدولين المفعمتان بالرغبة تتنقلان من الأجساد الشهوانية إلى تلك الرشيقة، ومن القدود الرقيقة إلى تلك ذات اللحم الوفير. كان يعرف أن كل واحدة منهن ستظل إلى الأبد سرًا مستغلقًا، وأن الألغاز التي تطل من عيونهن الواسعة التي تختلس النظر إليه من تحت الأقنعة السوداء ستبقى بلا حل إلى الأبد. وتحولت بهجة النظر إليهن إلى رغبة معذبة لا تكاد تُحتمل. وبدا له أن الآخرين أيضًا يكابدون الشعور نفسه.

تحول لهاث النشوة إلى زفرات تكاد تكون محملة باللوعة والأسى. واندلعت صرخة في مكان ما، فاندفع الجميع فجأة، كأن ثمة أحدًا يطاردهم، من الحجرة المعتمة نحو النساء اللاتي استقبلنهم بضحكات وحشية خليعة. كان الرجال قد خلعوا العباءات ويرتدون الآن ثياب فرسان بألوان بيضاء وصفراء وزرقاء وحمراء. وكان فريدولين هو الشخص الوحيد الذي لا يزال يرتدي ثياب الرهبان. فانسل بشيء من العصبية إلى أبعد ركن في الحجرة، بالقرب من ناختيجال الذي كان يوليه ظهره، ويضع عصابة على عينيه. لكن فريدولين فكر أنه بإمكانه اختلاس النظر من تحت العصابة إلى المرآة الطويلة التي أمامه، والتي تنعكس على صفحتها صورة الفرسان بملابسهم ذات الألوان الزاهية، وهم يرقصون مع رفيقاتهم العرايا.

فجأة، جاءت امرأة ووقفت خلف فريدولين وهمست له -حيث لم يكن هناك أحد يتحدث بصوت عالٍ، كأن الأصوات ينبغي أن تبقى هي أيضًا طي الكتمان-: "ماذا هناك؟ لماذا لا ترقص؟".

رأى فريدولين شخصين من طبقة النبلاء يراقبانه بتركيز من أحد الأركان، فارتاب في أنهما قد أرسلا إليه هذه المرأة ذات القوام الشبيه بقوام الفتيان، لتختبره. ومع ذلك، أراد أن يرقص معها. لكن في هذه اللحظة، تركت امرأة أخرى رفيقها وأسرعت نحوه. أدرك على الفور أنها المرأة نفسها التي سبق أن حذرته، لكنها تظاهرت بأنها لم تره إلا الآن، وهمست بصوت عالٍ بما يكفي لكي يصل إلى الركن المقابل: "ها أنت قد عدتَ أخيرًا!"، وتابعت ضاحكة: "كل محاولاتك بلا طائل، أنا أعرفك". ثم استدارت إلى المرأة ذات القوام الذي يشبه قوام الفتيان وقالت: "اسمحي لي أن آخذه منك دقيقتين فحسب، وبعدها سيكون ملكِ مرة أخرى حتى الصباح، إن أردتِ"، وأضافت بصوت أكثر خفوتًا: "إنه هو حقًا". فأجابتها المرأة الأخرى في دهشة: "حقا؟"، وبخطوات خفيفة ذهبت لتنضم إلى الفرسان في الركن.

بعد أن أصبحت وحدها معه، حذرته المرأة: "لا تطرح أسئلة، لا تندهش لأي شيء. لقد حاولت أن أضللهم، لكنك لا تستطيع أن تستمر في خداعهم لوقت طويل. اذهب قبل فوات الأوان، وهذا يمكن أن يحدث في أي لحظة تقريبًا، واحرص على ألا يتبعك أحد؛ فلا ينبغي لأحد أن يعرف من تكون، وإلا فلن تعرف طعم السكينة والسلام إلى الأبد، اذهب!".

"هل سأراكِ مرة أخرى؟".

"هذا مستحيل".

"إذًا سأبقى معكِ. في أسوأ الأحوال، ستكون حياتي في خطر، وأنا مستعد في هذه اللحظة للتضحية بها من أجلك". ثم أمسك بيديها وحاول أن يجذبها نحوه.

همست مرة أخرى، بيأس تقريبًا: "اذهب!".

فضحك، وسمع نفسه يضحك كأنه في حلم: "أنا أعرف جيدًا ما أفعله. فأنتن لم تأتين جميعًا إلى هنا فقط لكي تفقدننا صوابنا من النظر إليكن. وأنت تفعلين هذا إمعانًا في إغاظتي وإثارة أعصابي".

"سرعان ما سيكون الوقت قد فات؛ ينبغي أن تذهب!".

لكنه ما كان لينصت إليها: "هل تريدين القول إنه لا توجد هنا غرف يستطيع الأزواج أن يجلسوا فيها على راحتهم؟ هل سيكتفي كل هؤلاء الناس بتبادل تحية وداع مهذبة ثم ينصرفون؟ لا يبدون لي كذلك على الإطلاق".

قال هذا وهو يشير إلى الراقصين، أجساد بيضاء لامعة ملتصقة بالثياب الحرير الزرقاء والصفراء والحمراء لرفقائهن في الرقص، يدورون معًا في الحجرة المجاورة ذات الإضاءة الباهرة والجدران المغطاة بالمرايا، على وقع الأنغام الجامحة للبيانو. وبدا له أنه لم يعد هناك من يعيرهما انتباهًا هو والمرأة التي بجانبه. فظلا واقفين هناك وحدهما في الحجرة الوسطى نصف المظلمة.

همست قائلة: "أنت تتمنى أشياء لا وجود لها، لا وجود لمثل هذه الغرف. وهذه هي فرصتك الأخيرة للانصراف".

"تعالي معي!".

هزت رأسها بعنف، ويأس.

أطلق ضحكة أخرى، لم يتعرف فيها على ضحكته: "أنتِ تسخرين مني. هل جاء كل هؤلاء الرجال والنساء إلى هنا فقط لكي يأججوا نيران رغباتهم ثم يذهبوا في سلام؟ من يستطيع أن يمنعك من الذهاب معي إن أردتِ ذلك؟".

أخذت نفسًا عميقًا وطأطأت رأسها.

"أوه، فهمتُ الآن. هذا هو العقاب الذي تنزلونه بالذين يأتون إلى هنا بلا دعوة. ما كان باستطاعتكم اختراع عقاب أقسى من هذا. أرجوكم أن تطلقوا سراحي وتصفحوا عني. أنزلوا بي أي عقاب آخر إلا أن أتركك".

"أنت مجنون. أنا لا استطيع الذهاب معك، فضلاً عن أي أحد آخر. أي شخص قد أذهب معه سيكون عليه التضحية بحياته وحياتي أيضًا".

شعر فريدولين أنه ثمل، ليس بالعطر الذي يفوح من جسدها أو بثغرها الأحمر اللامع فحسب، ولا بالجو الغريب الذي يسود الحجرة والأسرار الشهوانية التي تكتنفه من كل جانب فقط، كان ثملاً، وبه ظمأ لا يُطفأ، بكل التجارب التي مر بها هذه الليلة، والتي لم تنتهِ أي واحدة منها نهاية مُرضية. كان ثملاً بنفسه، بجسارته، بالتغيير الذي يشعر به في داخله. فمد يده ليلمس النقاب الذي تلف به رأسها، كأنه يريد انتزاعه. فأمسكت بيده وقالت: "ذات ليلة في هذا المكان، في أثناء الرقص، خطر لأحدهم أن ينزع النقاب عن وجه واحدة منا. فما كان منهم إلا أن نزعوا القناع عن وجهه وطردوه إلى الخارج بالسياط".

"وهي؟".

"هل قرأتَ قبل أسابيع خبرًا عن فتاة شابة جميلة تناولت السم في اليوم السابق على زفافها؟".

تذكر الحادثة، بل واسم الفتاة، وذكره لها: "أليست هي تلك الفتاة النبيلة التي كانت مخطوبة لأمير إيطالي؟".

أومأت برأسها.

وفجأة جاء أحد الفرسان، أفضلهم مظهرًا والوحيد الذي كان يرتدي ون الأبيض، ووقف أمامه. وبانحناءة خفيفة، مهذبة لكن آمرة،

طلب إلى المرأة التي كان فريدولين يتحدث إليها أن تشاركه الرقص. بدت مترددة للحظة، لكنه طوق خصرها بذراعه وسارا مبتعدين لينضما الى بقية الراقصين في الحجرة المجاورة.

انتاب فريدولين شعور مفاجئ بالوحدة، وسرت فيه رجفة كأنه شعر بالبرد، فأخذ يتلفت حوله. لم يبدُ أن هناك أحدًا يعيره انتباهًا، وربما كانت هذه هي فرصته الأخيرة للخروج الآمن. لكنه لا يدري لماذا بقي منزويًا في ركنه كالمسحور، حيث كان على يقين الآن بأن لا أحد يراقبه. لعل السبب في ذلك يعود إلى نفوره من فكرة الانسحاب المشين، وربما المثير للسخرية أيضًا، أو لرغبته الحارقة غير المُشبعة في تلك المرأة الجميلة التي لا يزال عطرها يملأ خياشيمه. أو لعله بقي في مكانه بسبب من أمل غامض أن يكون كل ما حدث له حتى الآن اختبارًا متعمدًا لشجاعته، وأن هذه المرأة الرائعة قد تكون مكافأته على نجاحه في هذا الاختبار. وعلى كل حال، كان من الواضح أن الضغوط التي يتعرض لها تفوق احتماله، وعليه أن يضع حدًا لها أيًا كانت المخاطرة. وأيًا يكن القرار الذي سيتخذه، فمن المستبعد تمامًا أن يكلفه حياته. فلعله وقع وسط أناس حمقى أو متهتكين، لكنهم بالتأكيد ليسوا أشقياء أو مجرمين. خطر له أن يعترف لهم بأنه تسلل إلى الحفل من دون دعوة ويضع نفسه بين أيديهم على طريقة الفرسان. تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنتهي بها هذه الليلة -نهاية سعيدة متناغمة- بفرض أنها ليست مجرد سلسلة شبحية مجنونة من المغامرات الداعرة الكئيبة التي لا نهاية لها. وعليه، فقد أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ يستعد لتنفيذ خطته.

لكن في هذه اللحظة، سمع صوتًا يهمس بجواره: "كلمة السر!" كان فارس يرتدي السواد قد اقترب منه دون أن يراه. وعندما لم يحر فريدولين جوابًا، كرر السؤال. قال فريدولين: "الدنمارك".

"هـذا صحيح يـا سـيدي، هـذه هـي كلمـة سر الدخـول، لكـن -إن كان لي أن أسـأل- مـاذا عـن كلمـة سر البيـت؟". لـزم فريدولـين الصمـت.

"ألـن تتكـرم بإخبـاري بكلمـة سر البيـت؟". بـدا سـؤاله محمـلاً بتهديـد شديد.

هـز فريدولـين كتفيـه، فمـشى الآخـر حتـى منتصـف الحجـرة ثـم رفـع يـده. فكـف البيانـو عـن العـزف وتوقـف الرقـص. اقـترب منـه فارسـان، أحدهـما يرتـدي الأصفـر، والآخـر يرتـدي الأحمـر، وقـالا في صـوتٍ واحـد: "كلمـة الـسر، يـا سـيدي".

قـال فريدولـين بابتسـامة فارغـة لكنـه كان يشـعر بهـدوء كامـل: "لقـد نسـيتُها".

قـال السـيد الـذي يرتـدي الأصفـر: "هـذا لسـوء الحـظ، لأن هنـا الأمـر سـيان إن كنـتَ نسـيتَها أم لم تعرفهـا قـط".

تدفـق بقيـة الرجـال إلى الحجـرة وأُغلقـت الأبـواب عـلى الجانبـين. ووقـف فريدولـين وحيـدًا في ثـوب الراهـب وسـط الفرسـان بثيابهـم زاهيـة الألـوان.

هتـف عـدد كبـير منهـم: "اخلـع قناعـك!"، فمـد فريدولـين ذراعـه ليحمـي نفسـه منهـم. أن تكـون الشـخص الوحيـد بـلا قنـاع وسـط حشـد كبـير مـن المُقنعـين، بـدا لـه أسـوأ ألـف مـرة مـن أن تجـد نفسـك عاريًـا فجـأة، وسـط أنـاس يرتـدون ملابسـهم بالكامـل. فأجـاب بثبـات: "لـو أن وجـودي هنـا قـد أسـاء إلى أي مـن السـادة الحضـور، فأنـا عـلى اسـتعداد لتقديـم أي ترضيـة بالطـرق المعتـادة، لكنـي لـن أخلـع قناعـي إلا إذا فعلتـم جميعًـا الـشيء نفسـه".

قـال الفـارس الـذي يرتـدي الأحمـر، والـذي لم يكـن قـد تكلـم حتـى الآن: "ليسـت المسـألة مسـألة ترضيـة، بـل مسـألة كفـارة".

أمره صوت آخر ذو نبرة حادة متغطرسة ذكّرته بضابط يصدر أوامره: "اخلع قناعك! وسننبئك في وجهك بما ينتظرك".

قال فريدولين بنبرة أكثر حدة: "لن أخلعه، والويل لمن يجرؤ أن يلمسني".

وبغتة امتدت يد، كأنما لتنزع قناعه، وعندها انفتح الباب فجأة وظهرت امرأة -لم يكن لدى فريدولين أي شك في من تكون- في ثياب راهبة، كما رآها أول مرة. ووراءها، في الحجرة ذات الإضاءة الباهرة، كانت بالإمكان رؤية بقية النساء، عرايا، بوجوه منتقبة، وقد أخذن يتجمعن معًا في ذعر. ثم انغلق الباب خلفها على الفور.

قالت الراهبة: "دعوه وشأنه، أنا مستعدة لأن أفتديه".

مرت فترة قصيرة من الصمت العميق، كأن شيئًا رهيبًا قد حدث. ثم استدار الفارس الذي يرتدي الأسود، والذي كان قد طلب منه كلمة السر، نحو الراهبة وقال لها: "هل تعرفين تبعات ما تفعلين؟".

"أعرف".

ساد الجميع شعور عام بالارتياح.

قال الفارس لفريدولين: "أنت حر إذًا، غادر هذا البيت في الحال وإياك أن تسعى لمعرفة المزيد عما رأيته هنا. إن حاولت أن تضع أحدًا في أعقابنا، وسواء نجحت في هذا أم لا، ستكون نهايتك".

وقف فريدولين في مكانه بلا حراك. ثم سأله: "كيف ستفتديني عنده المرأة؟".

بيد أنه لم يتلقَ أي إجابة. وبدلاً من ذلك، أشارت جميع الأيدي إلى الباب، بما معناه أنه ينبغي عليه الذهاب فورًا.

هز فريدولين رأسه وقال: "أنزلوا بي ما شئتم من العقاب، لكني لن أدع هذه المرأة تدفع الثمن بدلاً عني".

قال الفارس الذي يرتدي الأسود برقة شديدة: "لن تستطيع -في كل الأحوال- أن تغير شيئًا من مصيرها؛ فالعهود التي تُقطع هنا لا رجعة عنها".

أومأت الراهبة برأسها كأنها تؤمّن على كلامه، ثم قالت لفريدولين: "اذهب!".

أجابها رافعًا صوته: "لا، لن يكون للحياة أي معنى عندي لو ذهبتُ من دونك. لن أسألكم من تكونون ولا من أين أتيتم. لكن فيمَ الإصرار، أيها السادة، على الاستمرار في هذا الكرنفال الهزلي، حتى لو بدا من الواضح أنه قد ينتهي نهاية سيئة؟ فأيًا كنتم، من المؤكد أنه لديكم حياة أخرى. وأنا لن أمثل أي دور، هنا أو في أي مكان آخر. ولئن كنتُ قد اضطررتُ اضطرارًا إلى هذا حتى الآن، فسوف أتوقف فورًا. أشعر أن ثمة قدرًا قد حل بي لا علاقة له البتة بهذه الحماقة. سوف أخبركم باسمي، وأخلع قناعي وأتحمل مسؤولية العواقب".

هتفت الراهبة: "لا تفعل ذلك، سوف تدمر نفسك فحسب من دون أن تنقذني. اذهب!". ثم استدارت نحو الآخرين وقالت: "هأنذا، خذوني، كلكم!". سقط عنها الثوب الداكن، كأنما بفعل السحر. فوقفت هناك بجسدها الأبيض البراق، ومدت يدها إلى النقاب الملفوف حول رأسها ووجهها وعنقها وفكته بحركة دائرية رائعة. فسقط على الأرض، وانهمر شعرها الداكن فوق كتفيها ونهديها ووركيها، لكن قبل أن يتمكن فريدولين من اختلاس نظرة واحدة إليها، أمسكت به سواعد لا تُقاوم، ودفعته نحو الباب. وفي لحظة واحدة وجد نفسه في حجرة الاستقبال، وانغلق الباب خلفه. ثم ظهر خادم مُقنّع وأحضر له معطفه الفراء وساعده في ارتدائه. ثم انفتح الباب الرئيس أوتوماتيكيًا، كأنما بفعل قوة غير مرئية، فخرج منه مسرعًا. وفي أثناء وقوفه في الشارع اختفت الأضواء وراءه. ووقف المنزل هناك، غارقًا في الصمت، بنوافذ موصدة لا يصدر عنها بصيص ضوء واحد. لا بد أن أحتفظ في ذهني

بصورة واضحة لكل شيء هنا، كانت هذه هي الفكرة المسيطرة عليه: لا بد أن أعثر على هذا البيت مرة أخرى، والباقي سوف يمضي في مساره الطبيعي.

اكتنفه الظلام. وعلى مسافة قصيرة فوق المكان الذي كان من المفترض أن تنتظره فيه عربة الأجرة كانت تُمكن رؤية الوميض الكامد المائل للاحمرار المنبعث من أحد مصابيح الشارع. وظهرت عربة الموتى تسير من الشارع بالأسفل، كأنما قد استدعاها، ثم فتح له خادم بابها.

قال فريدولين: "هناك عربة أجرة تنتظرني". وعندما هز الخادم رأسه، تابع قائلاً: "لو كانت قد ذهبت بالفعل، سأعود إلى المدينة سيراً على القدمين".

أجاب الرجل بإيماءة من يده لا يمكن أن تصدر أبدًا عن خادم، وبالتالي لم يكن هناك مجال للاعتراض. كانت قبعة الحوذي الحرير العالية لدرجة مضحكة ترتفع شاهقة في الليل. عصفت الريح بشدة، وانتشرت في السماء قطعان من السحب البنفسجية تركض في سباق محموم. شعر فريدولين، أنه بعد تجربته السابقة، لم يعد أمامه إلا أن بة، التي انطلقت به على الفور.

عقد العزم على استجلاء غموض المغامرة التي خاضها في أقرب وقت ممكن، أيًا تكن الأخطار التي قد تنجم عن ذلك. فقد بدا له أن حياته لن يكون لها أي معنى بعد الآن، إن لم ينجح في ـثور على المرأة الغامضة التي كانت في هذه اللحظة بالضبط تدفع ثمن سلامته، وهو الثمن الذي لم يكن من الصعب تخمينه. لكن لماذا كان عليها أن تضحي بحياتها من أجله؟ تضحي؟ هل يمكن لامرأة من هذا النوع أن تنظر إلى الأشياء التي واجهتها، والتي تذعن لها الآن، باعتبارها تضحية؟ فلو كانت معتادة على المشاركة في أمور كتلك -

وقد كانت على وعي كامل بالقواعد بحيث يستحيل أن تكون تلك هي المرة الأولى- فما الفرق بالنسبة عندها بين أن تكون مِلكًا لفارس واحد أو مِلكًا لهم جميعًا. وفي الحقيقة، هل يمكن أن تكون إلا امرأة منحلة؟ ألسن جميعهن كذلك؟ هذه هي الحقيقة، بلا شك، حتى لو كن جميعًا لديهن حياة أخرى، أكثر طبيعية -إن جاز القول- إلى جانب حياة الفجور هذه. ربما كان كل ما مر به حتى الآن ليس إلا مزحة شنيعة، مزحة تم التخطيط والإعداد لها والتدرب عليها من أجل مناسبة كهذه، عندما يلقون القبض على أحد الدخلاء الوقحين متلبسًا بمحاولة التسلل إلى الحفل دون دعوة؟

ومع ذلك، فعندما أخذ يفكر في المرأة التي حذرته منذ البداية، والتي كانت على استعداد الآن لدفع الثمن بدلاً عنه، تذكر شيئًا ما في صوتها، وحركاتها، في النُبل الملكي لجسدها العاري، لا يُمكن أن يكون زائفًا. أم لعل ظهوره المفاجئ قد غيّر فيها شيئًا؟ بعد كل ما حدث، لا يبدو هذا الفرض مستحيلاً، أو مغرقًا في الوهم والخيلاء. فربما كانت هناك ساعات أو ليالٍ معينة، أخذ يفكر، ينبعث فيها سحر غريب، لا يُقاوم، من أناس لا يتمتعون في الظروف العادية بأي تأثير خاص على الجنس الآخر.

واصلت العربة صعودها. لو أن كل شيء قد سار على ما يرام، لكان يجب أن يكون قد دخل إلى الشارع الرئيس قبل وقت طويل. ماذا سيفعلون به؟ إلى أين تأخذه العربة؟ هل ستتواصل فصول المهزلة في مكان آخر؟ وماذا سيحدث فيها؟ حل اللغز واجتماع شمل سعيد في مكان آخر؟ هل سيُكافأ على اجتيازه الاختبار على هذا النحو المشرّف ويُعين عضوًا في الجماعة السرية؟ هل ستصبح هذه الراهبة الحسناء مِلكًا له دون منازع؟ كانت نافذتا العربة مغلقتين، وحاول فريدولين أن ينظر منهما إلى الخارج، لكنهما كانتا معتمتين. حاول أن يفتحهما، بدأ بالواحدة، ثم الأخرى، بلا جدوى. وكان الحاجز الزجاجي الذي

يفصل بينه وبين صندوق الحوذي بنفس سُمك النوافذ وإحكامها. طرق الزجاج، نادى، صرخ، لكن العربة واصلت طريقها. حاول أن يفتح كلا البابين، لكنه لم يستطع حتى أن يزحزحهما. وغرقت نداءاته المتكررة وسط هدير العجلات ودوي الريح. ثم بدأت العربة ترتج وهي تهبط الطريق بسرعة متزايدة. انتاب فريدولين شعور بالقلق والفزع، وأوشك أن يحطم إحدى النافذتين المعتمتين، لكن في هذه اللحظة توقفت العربة فجأة. وانفتح البابان معًا، كأنما بفعل آلية ما، وكأنه، للمفارقة، كان حرًا في اختيار أي الجانبين ينزل منه. قفز إلى الخارج، وانغلق البابان بدوي عالٍ، ومن دون أن يعيره الحوذي أي انتباه، انطلق بالعربة مبتعدًا عبر الحقل المفتوح في ظلام الليل.

كانت السماء غائمة، تركض فيها قطعان السحب، والريح تصفر. وقف فريدولين وسط الثلج الذي كان ينشر ضوءًا شاحبًا في أرجاء المكان. وحيدًا، بمعطفه الفراء المفتوح فوق ثياب الرهبان وقبعة الحجاج فوق رأسه، وقد استولى عليه شعور غريب؛ كان الشارع الرئيس على بعد مسافة قصيرة، حيث يوجد صف من مصابيح الشارع ينبعث منها ضوء مرتجف شاحب يشير إلى اتجاه المدينة. لكنه انطلق في خط مستقيم عبر الحقل المنحدر، المغطى بالجليد، ليختصر الطريق، لأنه كان يريد أن يجد نفسه وسط الناس بأسرع ما يُمكن. كانت قدماه مشبعتين بالماء عندما وصل إلى شارع ضيق، غير مُضاء تقريبًا، ومشى في البداية بين أسيجة عريضة عالية كانت تئن في الريح. ثم انعطف عند الناصية التالية، فوجد نفسه في شارع أوسع نسبيًا، تنتشر فيه منازل صغيرة بالتناوب مع قطع أرض بناء فارغة. وفي مكان ما دقت ساعة برج معلنة الثالثة.

رأى شخصًا قادمًا نحوه، يرتدي سترة قصيرة ويدس يديه في جيبي بنطاله، رأسه مدفون بين كتفيه، وقبعته تغطي جبهته. استعد فريدولين لصد الاعتداء، لكن المتشرد استدار فجأة وأطلق ساقيه

للريح. سأل نفسه: ما معنى هذا؟ ثم قرر أنه لا بد أن مظهره غريب للغاية، فخلع قبعة الحجاج، وزرر معطفه الذي كان ثوب الرهبان يخفق تحته حول كاحليه. ثم انعطف مرة أخرى في شارع رئيس من شوارع الضواحي. مر به رجل يرتدي ثياب الفلاحين وتحدث إليه، ظنًا منه أنه كاهن. ألقى مصباح الشارع ضوءًا على لافتة مثبتة على جدار بيت يقع عند الناصية. "ليبهارتشتال"؛ لم يبتعد كثيرًا إذًا عن البيت الذي غادره قبل أقل من نصف ساعة. وللحظة شعر بالرغبة في أن يعود أدراجه ويبقى في الجوار انتظارًا لتطورات جديدة. لكنه نبذ الفكرة عندما أدرك أن هذا قد يعرضه لخطر شديد فحسب من دون أن يساعده في حل اللغز. وحين أخذ يتخيل ما كان يحدث في الفيلا الآن، ملأه شعور بالغضب واليأس والخزي والخوف. كانت هذه الحالة الذهنية تفوق قدرته على الاحتمال، لدرجة أنه كاد يشعر بالأسف لأن المتشرد لم يهاجمه؛ بل وبالحسرة أيضًا كونه لا يرقد ممددًا الآن بجوار السياج في الشارع المقفر بطعنة سكين في جنبه. فلعل هذا كان من شأنه، على الأقل، أن يضفي شيئًا من المعنى على هذه الليلة الخالية من أي معنى بمغامراتها الصبيانية، والتي تم إجهاضها جميعًا بلا رحمة. بدت له فكرة العودة إلى المنزل الآن شديدة السخافة بمجرد أن فكر فيها. لكنه لم يخسر كل شيء بعد. فما زال أمامه يوم آخر، وأقسم ألا يذوق طعم الراحة حتى يعثر على المرأة الجميلة التي أسكره عريها الباهر. في هذه اللحظة فقط بدأ يفكر في ألبرتينا، لكنه شعر أنها، هي أيضًا، ينبغي أن يظفر بها أولاً. فما كان ليستطيع، ولا ينبغي له، أن يلتئم شمله معها قبل أن يخونها مع كل النساء اللاتي التقاهن هذه الليلة. مع المرأة العارية، مع بييريت، مع ماريان، مع ميزي في الشارع الضيق. وألا يضطر أيضًا للعثور على الطالب المتغطرس الذي تعمد الاصطدام به، ويدعوه لمبارزة بالسيف أو، من الأفضل، لمبارزة بالمسدسات؟ ما أهمية حياة أي شخص آخر، أو حتى حياته هو نفسه، بالنسبة إليه؟ هل يتعين

على المرء أن يخاطر بحياته بدافع من الشعور بالواجب أو التضحية بالذات، لكن أبدًا ليس بناءً على هوى أو نزوة طارئة، أو تحديًا للقدر بكل بساطة؟

ومرة أخرى عاودته فكرة أنه من الممكن حتى أن تكون جرثومة المرض الفتاك قابعة في جسده في هذه اللحظة. ألن يكون من العبث أن يقضي نحبه لأن طفلاً مصابًا بالدفتيريا سعل في وجهه؟ لعله كان مريضًا بالفعل. أليس محمومًا؟ لعله كان في هذه اللحظة راقدًا في فراشه بالبيت، وكل الأشياء التي اعتقد أنه عاشها هذه الليلة ليست إلا محض هذيان؟

فتح فريدولين عينيه على اتساعهما، ومر بيده على جبينه وخديه. وجس نبضه فوجده أسرع قليلاً من المعتاد، لكن كل شيء على ما يُرام. كان مستيقظًا بالكامل.

واصل طريقه صوب المدينة. مر به عدد من عربات السوق تهدر على الطريق، ومن حين لآخر كان يقابل أشخاصًا في ثياب متواضعة وقد بدأوا يومهم للتو. وخلف واجهة أحد المقاهي، على مائدة فوقها مصباح غاز ذو ضوء مرتجف، جلس رجل سمين، بوشاح حول عنقه، ورأسه مدفون بين يديه، يغط في نوم عميق. كان الظلام لا يزال يلف البيوت، لكنه كان يستطيع أن يلمح هنا وهناك بعض الشبابيك المضاءة، وفكر أنه يستطيع أن يشعر بالناس يستيقظون تدريجيًا. بدا له أنه يراهم يتمطون في أسِرتهم ويستعدون ليومهم الشاق التافه. هو أيضًا أمامه يوم جديد، لكنه ليس يومًا تافهًا أو مضجرًا. وبقلب يخفق بسعادة غريبة، أدرك أنه خلال ساعات قليلة سوف يكون في المستشفى، يتجول بين أسِرة مرضاه بمعطفه الأبيض. رأى عربة يجرها حصان واحد واقفة عند الناصية التالية والحوذي نائم على صندوقه. فأيقظه وأعطاه عنوان منزله ثم صعد إلى العربة.

5

كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحًا عندما صعد فريدولين سلالم بيته. وقبل أن يفعل أي شيء ذهب إلى حجرة مكتبه وخبأ الثياب التنكرية في خزانة ملابس. ولأنه لم يكن يريد إيقاظ ألبرتينا، خلع حذاءه وملابسه قبل أن يدخل حجرة النوم، وبحرص شديد أضاء المصباح فوق المنضدة التي بجوار سريره. كانت ألبرتينا نائمة بهدوء، بذراعيها مطويتين تحت رأسها، شفتاها نصف منفرجتين تحيط بهما ظلال أليمة. كان وجهًا لم يعرفه فريدولين من قبل. انحنى فوقها، وفي الحال تغضن جبينها، كأنما لمسه أحد ما، وبدت ملامحها مشوهة على نحو غريب. وفجأة، وهي لا تزال مستغرقة في النوم، أطلقت ضحكة حادة جدًّا أثارت فزعه. نطق اسمها بطريقة لا إرادية، فضحكت مرة أخرى، ضحكة غريبة، تكاد تكون شاذة، كأنها ترد عليه. ناداها فريدولين بصوت أعلى، ففتحت عينيها ببطء ومشقة. وحدقت إليه، كأنها لا تستطيع التعرف عليه.

"ألبرتينا!" صاح للمرة الثالثة. وبينما أخذت تستعيد وعيها، ظهرت في عينيها أمارات الخوف بل والرعب أيضًا. نصف مستيقظة، يائسة على ما يبدو، رفعت ذراعيها لأعلى.

سألها فريدولين بأنفاس متقطعة: "ماذا هناك؟". وفيما هي تحدق إليه، مذعورة، أضاف ليطمئنها: "هذا أنا يا ألبرتينا". أخذت نفسًا عميقًا وحاولت أن تبتسم، ثم أسقطت ذراعيها على أغطية الفراش وقالت بصوت آتٍ من بعيد: "هل طلع الصبح بعد؟".

"على وشك. إنها الرابعة صباحًا. لقد وصلتُ للتو". ظلت صامتة، فتابع: "لقد مات المستشار. كان يحتضر عندما وصلتُ، وبالطبع لم استطع أن أغادر على الفور".

أومأت برأسها، لكنها بدت بالكاد تسمعه أو تفهمه. أخذت تحدق إلى الفراغ، كأنها تستطيع أن تنفذ بعينيها خلاله. ففكر أنها لا بد تعرف شيئًا عن التجارب التي مر بها مؤخرًا، وفي الوقت نفسه بدت له الفكرة سخيفة. انحنى فوقها ولمس جبينها، فسرت فيها رعدة خفيفة.

سألها: "ماذا هناك؟".

هزت رأسها ببطء فمرر يده برقة على شعرها: "ألبرتينا، ماذا هناك؟"

قالت بشرود: "كنت أحلم".

سألها برقة: "بِمَ كنت تحلمين؟".

"أوه، بأشياء كثيرة، لا أتذكرها تمامًا".

"ربما لو حاولتِ؟".

"كان كل شيء مشوشًا، وأنا متعبة الآن. ولا بد أنك مُتعب أنت أيضًا".

"مطلقًا. ولا أعتقد أنني سأذهب إلى الفراش على الإطلاق. فكما تعرفين، حين أعود إلى البيت في وقت متأخر هكذا، فإن أفضل شيء هو أن أجلس إلى مكتبي على الفور؛ ففي مثل تلك الساعات من الصباح..."، ثم قطع كلامه.مكتبة .. سُر مَن قرأ

سألها وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة قليلاً: "ألن يكون من الأفضل لو أخبرتِني بحلمك؟".

أجابته: "ينبغي حقًا أن تستلقي وتنال قسطًا من الراحة".

تردد للحظة، ثم مدد جسده بجانبها كما قالت له، لكنه كان حريصًا على ألا يلمسها. فكر: سوف يكون هناك سيف بيننا. وقد تذكر ملاحظة أبداها ذات مرة، نصف مازح، في مناسبة مشابهة. ظلا راقدين هناك، في صمت، بعيون مفتوحة، شاعرين، في آنٍ واحد، بقربهما من بعضهما والمسافة التي تفصل بينهما. وبعد قليل، أسند رأسه إلى ذراعه ونظر إليها لفترة طويلة، كأنه يستطيع أن يرى ما هو أكثر بكثير من مجرد تضاريس وجهها.

ألمح مجددًا: "حلمكِ!". لا بد أنها كانت تنتظر أن يتحدث هو. مدت له يدها، فأمسك بها، وبشرود أكثر منه برقة، طوق أصابعها الرشيقة بيده، كما اعتاد أن يفعل كثيرًا من قبل. ثم بدأت تتكلم: "هل ما زلت تذكر تلك الحجرة في الفيلا الصغيرة المطلة على بحيرة وورثر، حيث كنتُ أعيش مع أمي وأبي في ذلك الصيف الذي تمت فيه خطبتنا؟".

أومأ برأسه.

"حسنًا، لقد بدأ الحلم هناك. كنتُ أدلف إلى البيت، كممثلة تخطو على خشبة المسرح. لم أكن أعرف من أين أتيتُ. كان يبدو أن والديّ قد ذهبا في رحلة وتركاني وحدي. وهو ما أثار دهشتي، لأن زفافنا كان سيقام في اليوم التالي. لكن فستان الزفاف لم يكن قد

وصل بعد. فكرتُ أنني ربما كنتُ مخطئة، ففتحت الدولاب لأرى. لكن بدلاً من فستان الزفاف، وجدتُ عددًا هائلاً من الفساتين، أشبه بتلك الثياب الرائعة التي يرتدونها في العروض المسرحية، معلقة هناك، تشبه فساتين الأوبرا، فاتنة، ذات طابع شرقي. فكرتُ: أي واحد منها سأرتديه في الزفاف؟ ثم انغلق الدولاب فجأة، أو لعله اختفى، لا أتذكر. كانت الغرفة غارقة في ضوء ساطع، لكن الظلام كان حالكًا في الخارج.. وفجأة رأيتُك واقفًا هناك. كان عبيد السفينة قد جاءوا بك على متنها إلى البيت. ورأيتهم يختفون في الظلام على الفور. كنتَ ترتدي ثيابًا رائعة من الذهب والفضة، وتضع خنجرًا في جراب من الفضة يتدلى على جنبك. ثم مددتَ ذراعيك وأنزلتني لأسفل عبر النافذة. أنا أيضًا كنتُ أرتدي ثوبًا رائعًا، كثوب الأميرات. وقفنا بالخارج، في ضوء الشفق، والضباب الرمادي الخفيف يصل حتى كواحلنا. كان الريف المحيط مألوفًا لنا تمامًا: كانت هناك البحيرة، والجبل ينتصب شاهقًا فوقنا، وكان بإمكاني حتى أن أرى الفيلات التي كانت تقف هناك كبيوت الدمى. كنا نطفو، لا بل كنا نطير، عبر الضباب، وفكرتُ: هذه هي رحلة شهر عسلنا. لكننا سرعان ما توقفنا عن الطيران، ورحنا نسير على أحد دروب الغابة، ذلك الذي يؤدي إلى مرتفعات إليزابيث.. وفجأة، وجدنا أنفسنا في بقعة خالية من الأشجار وسط الجبال، تحيط بها الغابات من ثلاث جهات، وفي الخلف ينتصب جدار صخري منحدر شاهق الارتفاع. كانت السماء زرقاء ومرصعة بالنجوم، وشاسعة بدرجة لم أرها من قبل في عالم الواقع؛ كانت هي سقف حجرة الزوجية. ثم حملتني بين ذراعيك وأحببتني كثيرًا".

قال فريدولين بابتسامة ماكرة غير مرئية: "أتمنى أن تكوني قد أحببتني أنتِ أيضًا".

أجابته بجدية: "أكثر حتى مما أحببتني أنت، لكن كيف لي أن أشرح هذا؟ فرغم سعادتنا الشديدة كان حبنا حزينًا، كأنه كان محملاً

بنذر الشؤم.. وفجأة، جاء الصباح، وكان المرج يسبح في الضوء ومغطى بالأزهار، والغابة تلتمع بالندى، والشمس تصب أشعتها المرتجفة فوق الجدار الصخري. لقد حان وقت الرجوع إلى العالم والوجود بين البشر. لكن في تلك اللحظة حدث شيء رهيب: اختفت ملابسنا. استولى عليّ فزع لم أعرفه في حياتي، وشعور حارق بالخزي كاد يبتعلني. وفي الوقت نفسه كنتُ أشعر بالغضب تجاهك، كأنك أنت المسؤول عن هذه المصيبة. كان هذا الشعور بالرعب والخزي والغضب أشد من أي شيء عرفته في يقظتي. وفي هذه اللحظة، مدفوعًا بشعورك بالذنب، انطلقتَ عاريًا، لكي تبحث لنا عن ملابس. وعندما ذهبت، انتابني شعور بالبهجة والمرح، ولم أشعر بالأسف تجاهك، أو القلق عليك. كنتُ مغتبطة لأنني أصبحتُ وحدي، فأخذتُ أركض سعيدة عبر المرج وأغني لحنًا سمعناه ذات مرة في حفلة راقصة. كانت لصوتي رنة رائعة، وتمنيتُ أن يسمعوني هناك بالأسفل في المدينة التي لم أكن أراها، لكني كنتُ رغم ذلك أعرف أنها موجودة. كانت بعيدة جدًا في الأسفل ومُحاطة بسور عالٍ، مدينة شديدة الروعة والغرابة لا أستطيع حتى أن أصفها. لم تكن مدينة شرقية، أو بلدة ألمانية عتيقة على وجه الدقة، ومع ذلك بدت كمدينة شرقية في البداية، ثم كبلدة ألمانية عتيقة فيما بعد. وعلى أية حال، كانت مدينة مدفونة منذ وقت طويل وإلى الأبد. وفجأة، وجدتُ نفسي مستلقية في المرج، ممددة تحت ضوء الشمس. كنتُ أكثر جمالاً بكثير مما أنا عليه في الواقع. وبينما أنا راقدة هناك، رأيتُ شابًا يرتدي بدلة أنيقة ذات لون فاتح، يخرج من الغابات متجهًا نحوي. وأنا أدرك الآن أنه كان يشبه ذلك الدنماركي الذي حدثتك عنه بالأمس. اتجه نحوي وتحدث إليّ بأدب عندما مر بي، لكنه لم يعرني أي اهتمام بخلاف ذلك. اتجه مباشرةً إلى الجدار الصخري وأخذ ينظر إليه بإمعان، كأنه يفكر في طريقة للسيطرة عليه. وفي الوقت نفسه، رأيتُك تهرع من منزل إلى آخر، من محلٍ إلى آخر في المدينة المدفونة، تمشي حينًا تحت التعاريش،

ثم تجتاز ما يشبه السوق التركية. كنتَ تشتري لي أجمل ما تستطيع أن تجده من أشياء: ملابس، كتان، أحذية، مجوهرات. ثم وضعتَها جميعًا في حقيبة يد صفراء، استوعبَتها كلها. كان يتبعك حشد من الناس لم أكن أستطيع أن أراهم، لكني كنت أسمع صرخاتهم المهدِدة. والدنماركي، الذي كان يقف أمام الجدار قبل قليل، ظهر مجددًا خارجًا من الغابة، وكان على ما يبدو قد دار حول الأرض بأسرها في هذه الأثناء. بدا مختلفًا عما كان عليه، رغم أنه كان الشخص نفسه. فقد وقف أمام الجدار الصخري، ثم اختفى وظهر مجددًا خارجًا من الغابة ، ظهر واختفى مرتين، ثلاث مرات، مئة مرة. وفي كل مرة كان هو الشخص نفسه، وفي كل مرة بدا شخصًا مختلفًا أيضًا. كان يتحدث إليّ كلما مر بي، وفي النهاية وقف أمامي وأخذ يتفحصني. أطلقتُ ضحكة مغوية لم أضحكها في حياتي من قبل، فمد إليّ ذراعيه. وددتُ لو استطعتُ الهرب لكن بلا طائل.. ثم تهاوى على الأرض بجانبي".

لزمت ألبرتينا الصمت، فيما شعر فريدولين بجفاف في حلقه. وفي ظلام الحجرة كان بوسعه أن يراها وقد أخفت وجهها بين يديها.

قال لها: "حلم غريب، لكن من المؤكد أن هذه ليست النهاية!" وعندما أجابته بالنفي، سألها: "لماذا لا تكملين إذًا؟".

بدأت تتكلم مجددًا: "ليس أمرًا سهلاً؛ تلك أشياء من الصعب التعبير عنها بالكلمات. حسنًا، سأكمل.. بدا لي أنني أعيش عددًا لا يُحصى من الأيام والليالي؛ لم يكن هناك زمان ولا مكان. لم أعد في تلك البقعة الخالية من الأشجار، المُحاطة بالغابات والصخور. كنتُ الآن في سهلٍ مُغطى بالأزهار، يمتد إلى ما لا نهاية في كل الاتجاهات، لينتهي عند حافة الأفق. ولوقت طويل لم أكن بمفردي مع هذا الرجل في المرج. بل كان معنا عدد من الأزواج، ثلاثة، عشرة، ألف، لا أدري. بل ولا أدري حتى إن كنتُ قد لاحظتُ وجودهم أم لا، وما إذا كنتُ برفقة هذا الرجل فقط، أم برفقتهم جميعًا أيضًا. وتمامًا مثلما كان

ذلك الشعور بالرعب والخجل الذي انتابني في وقت سابق، يفوق أي شيء شعرتُ به من قبل في يقظتي، كذلك فلا شيء في حياتنا الواعية يضاهي ذلك الانطلاق والحرية والسعادة التي كنتُ أشعر بها الآن. ومع ذلك لم أنسَكَ لحظة واحدة. والحقيقة، أنني رأيتك مقبوضًا عليك -بواسطة عدد من الجنود، كما أعتقد- كان يوجد بينهم أيضًا عدد من الكهنة. ثم قام أحدهم، وكان رجلاً عملاقًا، بتقييد يديك، وكنتُ أعرف أنهم سينفذون فيك حكم الإعدام. كنتُ أعرف هذا دون أي شعور بالتعاطف معك، ودون أن يطرف لي جفن. كنتُ أشعر بكل شيء، لكن كأنما من مسافة بعيدة جدًا. ثم اقتادوك إلى فناء، بدا كفناء قلعة، ووقفتَ هناك، عاريًا، بيديكِ مقيدتين خلف ظهرك. ورغم أنني كنتُ بعيدة جدًا عنك، فقد كان بوسعك أن تراني، تمامًا مثلما كنتُ أراك، أنا والرجل الذي يضمني بين ذراعيه. وكان من الممكن أيضًا أن أرى بقية الأزواج، في هذا البحر اللانهائي من العري الذي كان يموج حولي، ولم نكن نشكل فيه، أنا ورفيقي، إلا موجة واحدة، إن جاز القول. وبينما أنت واقف في فناء القلعة، ظهرت في نافذة بالأعلى تغطيها ستائر حمراء امرأة تضع تاجًا على رأسها وترتدي عباءة أرجوانية. كانت ملكة البلاد، وأخذت ترمقك في الأسفل بنظرة حادة ومتسائلة. كنتَ واقفًا وحدك، فيما انزوى الآخرون جانبًا، ملتصقين بالسور، وسمعتهم يتهامسون ويهمهمون بحقد، وعلى نحو مهدِّد. ثم انحنت الملكة فوق الإفريز، فساد الصمت، وأشارت لك بيدها لكي تصعد إليها، وكنتُ أعرف أنها قررت العفو عنك. لكن إما أنك لم تلحظ إشارتها، وإما لم ترغب في الصعود. وفجأة رأيتُك واقفًا أمامها، مدثرًا بعباءة سوداء، ويداك لا تزالان مقيدتين. لم تكن في حجرة، بل في مكان مفتوح، طافيًا في الهواء على ما يبدو. وكانت الملكة تحمل في يدها مخطوطًا، قرار الحكم بإعدامك، يتضمن جرائمك وحيثيات الاتهام. وسألتك -لم أستطع أن أسمع الكلمات، لكني كنتُ أعرف مضمونها- إذا كنتَ مستعدًا لأن تكون عشيقها، وفي هذه الحالة

سيُلغى حكم الإعدام. لكنك هززت رأسك، معلنًا رفضك. لم يدهشني لذلك، فقد بدا من الطبيعي والمحتم أن تظل مخلصًا لي، تحت كل الظروف. هزت الملكة كتفيها، وأشارت بيدها. وفجأة، رأيتُك في قبو تحت الأرض، وسمعت أزيز السياط تنهال عليك، لكنني لم أستطع رؤية الذين كانوا يجلدونك بها. كانت دماؤك تتدفق أنهارًا، وكنت أراها دون أي شعور بالقسوة، أو حتى الدهشة. ثم اتجهت الملكة نحوك، وشعرها المسترسل ينساب حول جسدها العاري، وقدمت إليك التاج بكلتا يديها. وأدركتُ حينها أنها تلك الفتاة التي قابلتَها على شاطئ الدنمارك، الفتاة التي رأيتَها عارية، ذات صباح، على إفريز أحد أكشاك تبديل الملابس. لم تنبس بكلمة واحدة، لكن كان من الواضح أنها جاءت لتعرف ما إذا كنتِ تريد أن تصبح زوجها وملكًا على البلاد. وعندما رفضتَ مجددًا، اختفت فجأة. وفي اللحظة ذاتها رأيتُهم ينصبون صليبًا من أجلك، ليس في فناء القلعة بالأسفل، بل هناك في المرج، حيث كنتُ مستلقية مع عشيقي وسط بقية الأزواج. ورأيتُك تمشي وحيدًا عبر الشوارع العتيقة، بلا حراس، لكني كنتُ أعرف أن طريقك قد حُددت لك سلفًا؛ ومن المستحيل عليك أن تحيد عنها. وبعدها، رأيتُك تصعد درب الغابة، حيث كنتُ أنتظرك بلهفة، لكني لم أكن أشعر بأي تعاطف تجاهك، رغم أن جسدك كان مثخنًا بالجراح التي لم تعد تنزف. أخذتَ تصعد إلى أعلى أكثر فأكثر، والدرب يزداد اتساعًا، فيما الغابة تنحسر إلى الجانبين، حتى وصلتَ إلى حافة المرج، على مسافة هائلة، لا يحيط بها العقل. وابتسمت عيناك لي كأنك تريد أن تخبرني أنك حققت كل رغباتي وأحضرتَ لي كل ما أحتاجه: ملابس، أحذية، مجوهرات. لكني فكرتُ أن تصرفاتك خالية تمامًا من المعنى إلى درجة تفوق الوصف، وأردتُ أن أسخر منك وأضحك في وجهك، لأنك رفضتَ أن تتزوج من الملكة إخلاصًا لي، ولأنك عُذبتَ، وتترنح الآن صاعدًا إلى هنا لتموت ميتة بشعة. وبينما كنتُ أركض لملاقاتك، أخذتَ تقترب مني أسرع فأسرع. كنا طافيين في الهواء، ثم غبتَ عن

بصري؛ وأدركتُ أننا تجاوزنا أحدنا الآخر. كنتُ أتمنى، على الأقل، لو أنك تسمع ضحكاتي عندما كانوا يسمرونك إلى الصليب. وهكذا أخذتُ أضحك، ضحكات حادة وعالية بقدر استطاعتي.. كانت هذه هي الضحكة التي سمعتَني أضحكها يا فريدولين عندما استيقظتُ".

لم ينطق أحدهما بكلمة أو يأتِ بحركة. فأي كلمة تُقال في هذه اللحظة كانت لتبدو تافهة لا معنى لها. وكلما تقدمت هي في قصتها، بدت له تجاربه الخاصة أكثر سخفًا وتفاهة، حتى هذه اللحظة على الأقل. فأقسم لنفسه أن يستأنفها وينهيها كلها. وبعدها سوف يرويها عليها بدقة وأمانة ليثأر لنفسه من هذه المرأة التي كشفت عن خيانتها، وقسوتها وغدرها، والتي يعتقد الآن أنه يكرهها أكثر مما أحبها على الإطلاق.

اكتشف أنه ما زال قابضًا على أصابعها بيديه. ورغم أنه كان قد هيأ نفسه لأن يكرهها، فإن شعوره بالرقة والحنان تجاه هذه الأصابع الرشيقة الجميلة ظل ثابتًا لم يتغير، إلا أنه ازداد حدة. وبطريقة لا إرادية، بل وفي الحقيقة رغمًا عن إرادته، ألصق شفتيه بهذه اليد الأليفة قبل أن يطلق سراحها.

أبقت ألبرتينا عينيها مغمضتين، وخُيل إلى فريدولين أنه رأى ابتسامة بريئة، سعيدة تتراقص على ثغرها. وشعر برغبة غامضة في أن ينحني فوقها ويطبع قبلة على جبينها الشاحب، لكنه منع نفسه. وأدرك أن هذا لم يكن سوى التعب الطبيعي الناتج عن الساعات القليلة الماضية، وقد تنكر في صورة حنان في الجو الحميم لحجرتهما المشتركة.

لكن أيًا كانت حالته الذهنية الراهنة، وأيًا كانت القرارات التي سيتخذها في الساعات القليلة المقبلة، فقد كان في أمسّ الحاجة في هذه اللحظة إلى النوم والنسيان. لقد استطاع أن ينام طويلاً بلا أحلام في الليلة التالية لوفاة أمه، فلماذا لا يستطيع هذا الآن؟

مـدد جسـده بجـوار زوجتـه التـي بـدت أنهـا نامـت بالفعـل. أخـذ يفكـر: سـيف بيننـا، ونحـن مسـتلقيان هنـا مثـل عدويـن لدوديـن. بيـد أن هـذا لم يكـن إلا وهـمًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

6

استيقظ فريدولين في السابعة على طرقات الخادمة الخفيفة على الباب، فألقى نظرة سريعة على ألبرتينا. في بعض الأحيان كانت هذه الطرقات توقظها هي أيضًا. فكر فريدولين: لكنها اليوم كانت غارقة في نوم عميق، أعمق مما ينبغي. ارتدى ملابسه بسرعة، وفي نيته أن يرى ابنته الصغيرة قبل أن يذهب. كانت الطفلة نائمة بهدوء في سريرها الأبيض، ويداها مضمومتان بإحكام على شكل قبضتين صغيرتين، كما يفعل الأطفال عادة في نومهم، فطبع قبلة على جبينها، ثم سار على أطراف أصابعه حتى باب حجرة النوم، فوجد ألبرتينا ما زالت تغط في نوم عميق، فمضى إلى الخارج.

كانت عباءة الكاهن وقبعة الحجاج تقبعان في أمان داخل حقيبته الطبية السوداء. وكان قد وضع برنامجًا لليوم بعناية كبير، بل وحتى بشيء من التحذلق. في البداية كان عليه أن يزور محاميًا شابًا مريضًا للغاية يسكن بالقرب من منزله. فحصه فريدولين بعناية ووجد أن حالته تحسنت نوعًا ما، فعبر عن رضائه ببهجة صادقة، وطلب إليه

العودة إلى دواء قديم كان قد وصفه له من قبل. ثم ذهب إلى المنزل الذي في القبو الذي عزف فيه ناختيجال على البيانو الليلة الماضية. كان المكان لا يزال مغلقًا، لكن الفتاة التي تعمل في المقهي أخبرته أن ناختيجال يقيم في فندق صغير في "ليوبولدشتادت". فاستقل عربة أجرة ووصل هناك بعد ربع ساعة. كان مكانًا رثًا جدًا، يفوح برائحة شحم خنزير زنخ، وهندباء وأسِرّة لم تتم تهويتها منذ زمن. وكان حارس المبنى رجلاً صعب المراس، له عينان محتقنتان وماكرتان، لكنه كان حريصًا على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الشرطة، ومن ثم أدلى له عن طيب خاطر بكل المعلومات التي طلبها منه. فقد وصل السيد ناختيجال في عربة أجرة في الخامسة صباحًا، بصحبة رجلين يخفي كل منهما وجهه، عن قصد ربما، بوشاح حول رأسه وعنقه. وبينما كان ناختيجال في حجرته دفع الرجلان فاتورته عن الأسابيع الأربعة الماضية. وعندما مرت ساعة ولم يظهر، صعد أحدهما لإحضاره، ثم استقل ثلاثتهم عربة أجرة إلى "محطة الشمال". بدا ناختيجال منفعلاً جدًا، والحقيقة أنه -حسنًا، ما المانع في الإدلاء بالحقيقة كاملة لشخص يبدو أهلاً للثقة إلى حد بعيد- حاول أن يدس رسالة في يد الحارس، لكن الرجلين منعاه من ذلك. أي رسائل باسم السيد ناختيجال -هكذا أوضح له الرجلان- سوف يأتي لاستلامها شخص مُخول بذلك. استأذن **فريدولين في** الانصراف. كان سعيدًا لأنه يحمل حقيبته الطبية وهو يخرج من الباب، حتى لا يظن من يراه أنه يقيم في هذا الفندق، بل قد يظنه بالأحرى موظفًا رسميًا. لم يعد هناك ما يمكن عمله بخصوص ناختيجال في الوقت الراهن. لقد كانوا غاية في الحرص، لأسباب وجيهة ربما.

في محل الأزياء، فتح له السيد جيبيزر الباب بنفسه. قال فريدولين: "جئتُ لأعيد الملابس التي استأجرتُها، وأود أن أدفع حسابي". ذكر له صاحب المحل مبلغًا معقولاً، وأخذ النقود، وسجل شيئًا في دفتر

حسابات ضخم. ثم رفع بصره نحوه، بدهشة واضحة، عندما وجد أن فريدولين لم يتحرك من مكانه.

قال فريدولين بنبرة مفتش شرطة: "أود أيضًا، أن أتحدث معك بخصوص ابنتك".

ارتسم تعبير غريب حول منخاري السيد جيبيزر، كان من الصعب معرفة ما إذا كان ينم عن الاستياء، أم الازدراء أم الانزعاج.

سأله بصوت لا معالم له: "ماذا قلتَ؟".

قال فريدولين، وهو يستند بيده مفرودة الأصابع على المكتب: "لقد قلتَ بالأمس إن عقلها ليس سليمًا تمامًا. والوضع الذي وجدناها فيه يشير بالفعل إلى شيء من هذا القبيل. ولأنني شاركتُ فيه، كمشاهد على الأقل، أود حقًا أن أنصحك بعرضها على طبيب".

تفحصه جيبيزر بنظرة متغطرسة، وهو يدير بين أصابعه حامل أقلام طويلاً بطريقة غير طبيعية.

"وأفترض أن الدكتور يريد أن يتولى مسؤولية العلاج بنفسه؟".

أجابه فريدولين بصوت حاد: "من فضلك لا تسئ فهمي".

وفي هذه اللحظة، انفتح الباب الذي يؤدي إلى الغرف الداخلية وخرج منه شاب يرتدي معطفًا مفتوحًا فوق ملابس السهرة. قرر فريدولين أنه لا بد أنه أحد القاضيين اللذين التقاهما بالأمس، ولا شك أنه جاء من حجرة بييريت. بدا أنه فوجئ عندما وقعت عيناه على فريدولين، لكنه استعاد رباطة جأشه على الفور. لوح بيده لجيبيزر، ثم تناول علبة ثقاب ملقاة على المكتب وأشعل سيجارة، ثم غادر الشقة.

قال فريدولين، وهو يشعر بمرارة في فمه، وشفتاه ترتجفان بطريقة تنم عن الاحتقار: "أوه، هكذا الأمر إذًا".

سأله جيبيزر برباطة جأش: "ماذا قلتَ؟".

قال فريدولين وعيناه تنتقلان باهتمام من باب المدخل إلى باب حجرة بييريت: "إذًا فقد غيرتَ رأيك بخصوص إبلاغ الشرطة".

قال جيبيزر ببرود: "لقد توصلنا إلى اتفاق آخر"، ثم نهض كأن الحوار قد وصل إلى نهايته. وعندما استدار فريدولين ليذهب، فتح له الباب بلطف وقال دون أن يغير نبرته: "لو أراد الدكتور أي شيء آخر في أي وقت... ليس بالضرورة ثياب رهبان".

صفق فريدولين الباب وراءه. هكذا إذًا سُويت المسألة، فكر وهو يهبط الدرج مسرعًا بانزعاج، بدا له هو نفسه مبالغًا فيه. وكان أول ما فعله لدى وصوله إلى المستشفى هو أن اتصل بالبيت، ليسأل ما إذا كان أحد من مرضاه قد أرسل في طلبه، أو إذا كانت هناك أية أخبار أو رسائل له. ما إن بدأت الخادمة تجيب عن أسئلته، حتى جاءت ألبرتينا بنفسها لترد على مكالمته. وكررت على مسامعه ما قالته الخادمة، ثم أخبرته بطريقة عفوية أنها استيقظت من نومها للتو، وسوف تذهب لتناول الإفطار مع الطفلة. قال فريدولين: "قبليها نيابة عني، وأتمنى أن تستمتعا بإفطاركما".

لقد سره أن يسمع صوتها لكنه وضع السماعة سريعًا. لقد أراد حقًا أن يعرف خططها لفترة ما قبل الظهر، لكن ما شأنه بذلك؟ ففي قرارة نفسه كان كل ما بينهما قد انتهى بالنسبة إليه، مهما بدا على السطح أن حياتهما تمضي في مسارها المعتاد. ساعدته الممرضة الشقراء في خلع معطفه وناولته معطفه الكتان الأبيض، وهي تبتسم له كما يفعلن جميعًا سواء أعارهن المرء انتباهه أو لا.

بعد دقائق قليلة وصل العنبر. كان الطبيب المسؤول قد أبلغهم أنه ذهب لحضور مؤتمر في مدينة أخرى، وعلى المساعدين أن يقوموا بجولاتهم من دونه. كان فريدولين يشعر بالسعادة تقريبًا وهو يسير

مـن سريـر لآخـر، يتبعـه طلابـه، يفحـص المـرضى، ويكتـب الروشـتات، وينخـرط في محادثـات مهنيـة مـع المسـاعدين والممرضـات. لقـد حدثـت أشـياء كثـيرة. فقـد مـات صانـع الأقفـال، كارل روديـل، في أثنـاء الليـل، وسـتُجرى عمليـة التشريـح في الرابعـة والنصـف مـن بعـد الظهـر. كذلـك فقـد خـلا سريـر في عنـبر النسـاء، لكـن تـم شـغله مجـددًا. والمـرأة التـي في السريـر رقـم 17 وَجَـب نقلهـا إلى قسـم الجراحـة. وفـوق ذلـك، كان هنـاك الكثـير مـن النميمـة الشـخصية. مـن ذلـك، أن قـرار تعيـين رئيـس جديـد لقسـم العيـون سـيتم بَتُّـه بعـد يـوم غـدٍ. وكان هيجيلـمان، الـذي يعمـل حاليًـا أسـتاذًا في "جامعـة ماربـورج"، أوفـر المرشـحين حظًـا، رغـم أنـه قبـل أربـع سـنوات فقـط كان يعمـل مسـاعدًا لشـتيلفاج. فكـر فريدولـين: تـرقٍّ سريـع، لـن يتـم ترشـيحي أبـدًا لرئاسـة أي قسـم، عـلى الأقـل لأننـي لم أقـم قـط بالتدريـس في الجامعـة. لقـد فـات الأوان. لكـن لمـاذا؟ ينبغـي حقًـا أن أبـدأ مجـددًا في القيـام ببعـض الأبحـاث العلميـة، أو أن أتعامـل بجديـة أكـثر مـع بعـض مـن الأشـياء التـي بدأتُهـا بالفعـل. وعمـلي الخـاص يتيـح لي الكثـير مـن الوقـت.

طلـب إلى الدكتـور فوكسـتالر أن يتكـرم ويحـل محلـه في الإشراف عـلى العيـادة الخارجيـة. وأسر إليـه أنـه كان ليفضـل البقـاء هنـاك بـدلاً مـن الذهـاب إلى جاليتزنـبرج، غـير أنـه مضطـر إلى ذلـك. فقـد شـعر أن مـن واجبـه، وليـس لمصلحتـه الخاصـة فحسـب، القيـام بمزيـد مـن التحريـات حـول هـذه المسـألة، لكـن كان لديـه الكثـير مـن الأشـياء الأخـرى التـي ينبغـي أن تُسـوّى في هـذا اليـوم. فقـرر أن يسـأل الدكتـور فوكسـتالر أن يحـل محلـه أيضًـا في جـولات بعـد الظهـر، تحسـبًا لوقـوع أي طـارئ. كانـت الفتـاة الشـابة، المشـتبه في إصابتهـا بالسـل، واقفـة هنـاك تبتسـم لـه. كانـت هـي الفتـاة نفسـها التـي ألصقـت نهديهـا بوجهـه، بحميميـة شـديدة، في أثنـاء كشـفه عليهـا قبـل أيـام قليلـة. حدجهـا فريدولـين بنظـرة بـاردة، ثـم أشـاح بوجهـه عابسًـا. فكـر بمـرارة: كلهـن متشـابهات، وألبرتينـا

مثل كل الأخريات، إن لم تكن أسوأهن جميعًا. لن أعيش معها يومًا واحدًا بعد الآن، ولا يمكن تعود الأشياء كسابق عهدها أبدًا.

على الدرج تحدث إلى زميل له من قسم الجراحة. حسنًا، كيف حال المرأة التي تم نقلها إلى هناك في أثناء الليل؟ في رأيه الشخصي، لم تكن هناك حاجة حقيقية لإجراء جراحة. سوف يخبرونه، بالطبع، بنتيجة الفحص الهيستولوجي؟

"طبعًا، بالتأكيد يا دكتور".

أوقف عربة أجرة عند الناصية، وتفحص مذكرته الشخصية متظاهرًا أمام السائق أنه لم يقرر بعد إلى أين سيذهب. ثم قال: "إلى أوتاكرينج. خذ الشارع المؤدي إلى جاليتزينبرج. وسأخبرك أين تتوقف".

في أثناء جلوسه في العربة شعر فجأة بقلق رهيب. والحقيقة أنه كان يشعر بتأنيب الضمير لأنه كاد ينسى، خلال الساعات الماضية، المرأة الجميلة التي أنقذته. هل يجب أن يعثر الآن على البيت؟ حسنًا، لن يجد صعوبة كبيرة في ذلك. لكن السؤال هو ماذا سيفعل بعد أن يجده. يبلغ الشرطة؟ قد يؤدي هذا إلى نتائج كارثية للمرأة التي ضحت بنفسها من أجله، أو كانت، على الأقل، مستعدة لأن تفعل هذا. هل يلجأ إلى محقق خاص؟ لكنه وجدها فكرة غير محترمة ورخيصة تمامًا. لكن ماذا بإمكانه أن يفعل غير هذا؟ لم يكن لديه الوقت ولا المهارات المطلوبة لإجراء التحريات اللازمة. نادٍ سري؟ حسنًا، نعم، كان سريًا بالتأكيد، رغم أن الجميع كانوا يعرفون بعضهم بعضًا على ما يبدو. هل ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية، أو ربما كانوا حتى أعضاء في البلاط الإمبراطوري؟ فكر في عدد من الأرشيدوقات الذين يمكن بالفعل أن تصدر عنهم مثل تلك الأفعال. وماذا عن النساء؟ ربما تم استُؤجِرن من بعض المواخير. حسنًا، لا يبدو هذا مؤكدًا على الإطلاق، لكنهن، على كل حال، على قدر عظيم من الجاذبية. لكن ماذا عن

المرأة التي ضحت بنفسها من أجله؟ ضحت؟ لماذا يحاول، المرة تلو الأخرى، أن يحمل نفسه على الاعتقاد بأنها كانت تضحية حقًا؟ لقد كانت مزحة، بالطبع؛ الأمر برمته لم يكن سوى مزحة وينبغي أن يشعر بالامتنان لإفلاته من تلك الورطة بمثل هذه السهولة. حسنًا، لِمَ لا؟ لقد حافظ على كرامته، ولعل الفرسان أدركوا أنه شخص ليس من السهل خداعه، ولا بد أنها هي أيضًا أدركت ذلك. ومن المحتمل جدًا أنها كانت مهتمة به أكثر بكثير من اهتمامها بالأرشيدوقات أو أيًا كانت صفتهم.

نزل في نهاية شارع ليبهارتشتال، في الموضع الذي كانت الطريق تصعد فيه بشدة إلى أعلى، ثم صرف عربة الأجرة زيادة في الاحتياط. كانت ثمة سحب بيضاء في السماء الشاحبة الزرقة والشمس ساطعة بدفء الربيع. نظر وراءه فلم يرَ شيئًا مريبًا على مدى البصر، لا عربات أجرة، لا سابلة. وفيما هو يصعد الطريق، شعر أن معطفه صار ثقيلاً عليه، فخلعه وألقاه على كتفه عندما وصل إلى موضع في الطريق اعتقد أن الشارع الجانبي، الذي يوجد فيه المنزل الغامض، يتفرع منه جهة اليمين. لا يُمكن أن يكون مخطئًا. كانت الطريق تنحدر إلى الأسفل لكن ليس بالشدة نفسها تقريبًا التي بدت عليها في أثناء الليل. كان شارعًا صغيرًا جدًا. وفي الحديقة الأمامية لأحد البيوت كانت هناك شجيرات ورد مغطاة بعناية بالقش، وفي الفناء المجاور رأى عربة أطفال، وطفلاً في بدلة زرقاء من الجيرسيه يلهو في أنحاء المكان، فيما امرأة شابة تراقبه ضاحكة من نافذة في الطابق الأرضي. وبعدها قطعة أرض فضاء، ثم حديقة مهملة محاطة بسياج، ثم فيلا صغيرة، فمساحة من العشب، وأخيرًا البيت الذي كان يبحث عنه، لم يكن هناك شك في ذلك. لم يكن يبدو ضخمًا أو مهيبًا بالتأكيد. فقد كان عبارة عن فيلا من طابق واحد من طراز إمبراطوري متواضع، ومن الواضح أنه تم تجديدها منذ وقت قصير نسبيًا. كانت الستائر

الخضراء مسدلة ولا شيء يدل على أن أحدًا يعيش هناك. تلفت فريدولين حوله فلم يجد أحدًا بالشارع، عدا صبيين في البعيد يحملان كتبهما تحت ذراعيهما، ويسيران في الاتجاه المعاكس. توقف أمام بوابة الحديقة. وماذا عليه أن يفعل الآن؟ يعود أدراجه ببساطة؟ يا لها من فكرة شديدة السخف، فكر وهو يبحث عن زر الجرس. ماذا لو جاء أحدهم ليسأله عما يريد، بِمَ سيجيبه؟ حسنًا، سوف يسأله ببساطة ما إذا كان هذا البيت الريفي الجميل متاحًا للإيجار في الصيف. لكن باب البيت قد انفتح بالفعل، وخرج منه خادم عجوز يرتدي زيًا صباحيًا بسيطًا ومشى على الدرب الضيق المؤدي إلى البوابة. كان يمسك بخطاب في يده، مرره في صمت بين قضبان الحديد إلى فريدولين الذي كان قلبه يخفق بشدة.

سأله بتردد: "لي أنا؟". أومأ الخادم برأسه، وعاد إلى المنزل، وانغلق الباب خلفه. سأل فريدولين نفسه: ما معنى هذا؟ هل يمكن أن يكون منها؟ هل هي نفسها صاحبة المنزل؟ صعد الشارع مسرعًا عائدًا أدراجه، وفي هذه اللحظة فقط لاحظ أن اسمه مكتوب على المظروف بحروف كبيرة مهيبة. ففتحه، وبسط الورقة وقرأ التالي:

"توقف عن تحرياتك التي لا طائل منها على الإطلاق، واعتبر هذه الكلمات تحذيرًا ثانيًا. نتمنى، لمصلحتك الشخصية، أن هذا سيكون كافيًا".

أصابته هذه الرسالة بالإحباط على كل المستويات، لكنها على أية حال كانت مختلفة عن التوقعات الحمقاء التي فكر فيها. إلا أن لهجتها كانت متحفظة على نحو غريب، بل وبها حتى شيء من الرقة، وأظهرت أن من أرسلوها لا يشعرون بالأمان على الإطلاق.

تحذير ثانٍ؟ كيف ذلك؟ أوه، أجل، فقد تلقى التحذير الأول في أثناء الليل. لكن لماذا الثاني، وليس الأخير؟ هل يريدون امتحان

شجاعته مرة أخرى؟ هل سيُخضعونه لاختبار؟ وكيف عرفوا اسمه؟ حسنًا، لا صعوبة في هذا. لعلهم أجبروا ناختيجال على إخبارهم به. وفوق ذلك -ابتسم عندما اكتشف غفلته- كانت الأحرف الأولى من اسمه وعنوانه بالكامل مخيطين على بطانة معطفه الفراء.

لكن رغم عدم إحرازه أي تقدم، قد بث الخطاب الطمأنينة في نفسه بشكل عام، لا يعرف لماذا. فقد بات مقتنعًا أن المرأة التي كان يشعر بقلق شديد تجاهها ما زالت على قيد الحياة، ومن الممكن العثور عليها إذا استمر في البحث عنها بحرص ومهارة.

عاد إلى المنزل، وهو يشعر بتعب شديد لكن بطمأنينة غريبة أيضًا، بدت خادعة نوعًا ما. كانت ألبرتينا والطفلة قد انتهيتا للتو من تناول العشاء، لكنهما بقيتا بصحبته حتى انتهى من تناول طعامه. كانت جالسة هناك في مواجهته، المرأة التي وقفت تتفرج في هدوء وهم يصلبونه ليلة أمس. كانت جالسة هناك، بنظرة ملائكية في عينيها، مثل أم وربة بيت صالحة، ولدهشته لم يكن يشعر تجاهها بأية كراهية. استمتع بطعامه، بمزاج طيب شاعرًا بالإثارة. وكالمعتاد أخذ يقص عليها بحماس الأحداث الصغيرة التي وقعت له في العمل اليوم، وخاصة نمائم الأطباء، الذين اعتاد أن يُطلع ألبرتينا على أخبارهم أولاً بأول. فأخبرها أن قرار تعيين هوجيلمان قد تم البت فيه تقريبًا، ثم حدثها عن عزمه تكريس مزيد من الجهد لأبحاثه العلمية. كانت ألبرتينا تعرف تمامًا هذه الحالة المزاجية، وكانت تعرف أيضًا أنها لا تستمر طويلاً وأبانت عن شكوكها بابتسامة صغيرة. وحين بلغ فريدولين ذروة انفعاله في أثناء حديثه في هذا الموضوع، أخذت تمسد شعره برقة لتهدئ من روعه. فجفل قليلاً، ثم استدار إلى الطفلة، لكي يبعد رأسه عن لمساتها المحرِجة. ووضع الطفلة على حجره، وما إن بدأ يهدهدها إلى أعلى وإلى أسفل، حتى جاءت الخادمة لتعلن أن هناك العديد من المرضى بانتظاره. فنهض فريدولين وهو يشعر

بالارتياح، واقترح على ألبرتينا أن تذهب مع الطفلة للتمشية في هذا الأصيل البديع المشمس، ثم ذهب إلى حجرة الكشف.

خلال الساعتين التاليتين كان عليه أن يفحص ستة من مرضاه القدامى، ومريضين جديدين. ومع كل واحد منهم كان يستغرق بالكامل في الحالة التي أمامه. كان يفحصهم، ويدوّن ملاحظات ويكتب روشتات، سعيدًا بأن ذهنه كان يعمل بمثل هذا الصفاء والنشاط غير العادي؛ بعد أن أمضى الليلتين السابقتين بلا نوم تقريبًا.

وبعد انتهاء فترة الكشف، ذهب ليرى زوجته وابنته الصغيرة مرة أخرى. وشعر بالرضا عندما وجد أن أم ألبرتينا كانت معها، والطفلة تتلقى درسًا في اللغة الفرنسية من مربيتها. فقط عندما وصل السلالم الخارجية أدرك أن كل هذا النظام، والاستقرار، كل هذه الطمأنينة التي تتمتع بها حياته، ليس إلا خداعًا ووهمًا.

رغم أنه اعتذر عن عدم الذهاب إلى المستشفى بعد ظهر اليوم، فقد كان يشعر برغبة شديدة في الذهاب إلى عنبره. كانت هناك حالتان مهمتان بوجه خاص للبحث العلمي الذي كان ينوي القيام به. فعكف لبعض الوقت على دراستهما بدقة واهتمام أكثر من ذي قبل، وبعد ذلك كان عليه أن يزور مريضًا يقيم في وسط المدينة.

كانت الساعة قد بلغت السابعة مساءً عندما كان يقف أمام البيت القديم في شارع شريفوجيل. وعندما رفع بصره نحو نافذة ماريان، انبعثت صورتها في ذهنه، أكثر وضوحًا من كل ما عداها، بعد أن كانت قد بهتت تمامًا. حسنًا، لم يكن ثمة احتمال للفشل هنا. فقد كان بإمكانه أن يشرع في انتقامه، دون الحاجة إلى بذل مجهود كبير، وبأقل قدر من المشقة والمخاطرة. وما كان يُمكن أن يشكل رادعًا للآخرين، أي خيانة خطيبها، لم يكن يزيده إلا إصرارًا. أجل، أن يخدع، أن يكذب، أن يمثل دورًا، أمام ماريان، أمام ألبرتينا، أمام الدكتور رودايجر

الطيب، أمام العالم بأسره. أن يعيش نوعًا من الحياة المزدوجة، أن يكون طبيبًا قديرًا، أهلاً للثقة، وأمامه مستقبل كبير، زوج صالح ورب أسرة مستقيم. وفي الوقت نفسه، إنسان متهتك، مغوٍ، عدمي، يتلاعب بالناس، رجالاً ونساءً، كما يشاء له الهوى.. بدا له ذلك، في هذه اللحظة، مبهجًا للغاية. وأكثر جوانبه مدعاة للبهجة هو أنه في لحظة ما في المستقبل، بعد أن تكون ألبرتينا قد توهمت، لوقت طويل، أنها تنعم بالأمان والطمأنينة في ظل السلام والسكينة المخيمين على حياتهما الزوجية والعائلية، سوف يعترف لها، بابتسامة متعالية، بكل آثامه، انتقامًا للأشياء المريرة والمخزية التي اقترفتها ضده في الحلم.

على السلالم التقى الدكتور رودايجر الذي مد له يده بود شديد.

سأله فريدولين: "كيف حال الآنسة ماريان؟ ألم تستعد شيئًا من هدوئها ورباطة جأشها؟".

هز الدكتور رودايجر كتفيه: "لقد كانت مهيأة لهذه النهاية قبل وقت طويل، يا دكتور، فقط عندما جاءوا ظهر اليوم لأخذ الجثمان...".

"إذًا لقد تم هذا بالفعل؟".

أومأ الدكتور رودايجر برأسه: "ستقام الجنازة في الثالثة من بعد ظهر الغد".

خفض فريدولين بصره: "أفترض أن أقارب الآنسة ماريان موجودون معها الآن؟".

"لا، إنها وحدها الآن، وسوف تسرها رؤيتك مجددًا. ففي الغد سنأتي، أنا وأمي، لاصطحابها إلى مودلينج". وحين رفع فريدولين عينيه بنظرة مهذبة متسائلة، تابع رودايجر كلامه: "يمتلك والداي منزلاً صغيرًا هناك. وداعًا يا دكتور. ما زال لدي الكثير من الأشياء لأقوم بها. لن تصدق أبدًا كم المشكلات المرتبطة بمثل تلك الـ. الحالات.

أتمنى أن تكون بالأعلى عندما أعود". وبمجرد أن قال هذا كان قد وصل إلى الشارع.

تردد فريدولين لوهلة ثم صعد السلالم ببطء. ودق الجرس ففتحت له ماريان الباب بنفسها. كانت ترتدي ثيابًا سوداء وتضع عقدًا لم يره عليها من قبل. وكان وجهها متوردًا قليلاً.

قالت بابتسامة واهنة: "لقد جعلتني انتظر طويلاً".

"سامحيني يا آنسة ماريان، لقد كان يومًا مزدحمًا أكثر من المعتاد".

اجتازا غرفة الميت، حيث السرير الفارغ الآن، نحو الحجرة المجاورة، حيث حرر فريدولين -تحت صورة الفارس ذي الرداء الأبيض- شهادة وفاة المستشار في اليوم السابق. كان هناك مصباح صغير مضاء فوق طاولة الكتابة، والظلام يكاد يخيم على الحجرة.

دعته ماريان للجلوس على أريكة سوداء من الجلد ثم جلست قبالته.

"لقد التقيتُ الدكتور رودايجر توًا. إذًا فأنتم ذاهبون إلى الريف غدًا؟".

لم يبدُ أن ماريان قد فوجئت بنبرته الهادئة في السؤال، وارتخت كتفاها عندما تابع كلامه بخشونة تقريبًا: "أعتقد أن هذا عين العقل". ثم شرح لها بطريقة محايدة ما للهواء النقي وتغيير المكان من أثر طيب عليها.

جلست بلا حراك، والدموع تنهمر على خديها، فأثار فيه هذا المنظر شعورًا بنفاد الصبر بدلاً من التعاطف. وامتلأ بالخوف عندما فكر أنها، في اللحظة التالية، قد تلقي بنفسها تحت قدميه، وتكرر على مسامعه اعترافات الليلة السابقة. لكن عندما لم تقل شيئًا، نهض فجأة.

قال وهو ينظر إلى ساعته: "كم يؤسفني يا آنسة ماريان...".

رفعت رأسها، وهي ما زالت تبكي، ونظرت إلى فريدولين الذي ود لو استطاع أن يقول لها شيئًا لطيفًا، لكنه وجد صعوبة في ذلك.

بدأ يتكلم بارتباك شديد: "أفترض أنكِ ستقضين عدة أيام في الريف. أتمنى أن تكتبي لي... وبالمناسبة، أبلغني الدكتور رودايجر أن زفافكما سينعقد عما قريب؛ دعيني أعبر لكِ عن خالص تمنياتي".

لم تبدِ حراكًا، كأنها لم تفهم تهنئته ولا وداعه. مد لها يده فرفضتها، فكرر على مسامعها بنبرة تكاد تكون مؤنبة: "حسنًا إذًا، أتمنى مخلصًا أن تطلعيني باستمرار على أخبار صحتك. وداعًا يا آنسة ماريان".

ظلت جالسة هناك كأنها استحالت حجرًا، فغادر الحجرة، ووقف للحظة في المدخل كأنما ليمنحها فرصة أخيرة لكي تناديه. لكنها أشاحت بوجهها بعيدًا، فأغلق الباب خلفه. وعندما صار في الردهة شعر بندم شديد؛ وفكر للحظة في أن يعود أدراجه، لكنه وجدها فكرة سخيفة.

لكن ماذا سيفعل الآن؟ يعود إلى البيت؟ هل هناك مكان آخر يمكنه الذهاب إليه؟ وعلى كل حال، لم يكن هناك ما يمكن عمله اليوم. لكن ماذا عن الغد؟ ماذا يمكنه أن يفعل وبأية طريقة؟ انتابه شعور بالارتباك وانعدام الحيلة. كان كل ما تلمسه يداه يستحيل فشلاً. وبدا له كل شيء غير حقيقي: بيته، زوجته، طفلته، مهنته، وحتى هو نفسه، وهو يسير هكذا بطريقة آلية عبر الشوارع الليلية بينما أفكاره تجوب الأنحاء. دقت ساعة برج راتهاوس معلنة السابعة والنصف. لا يهم كم تأخر الوقت؛ فقد كان لديه من الوقت أكثر مما يحتاج. لم يكن هناك شيء أو شخص يثير اهتمامه، وشعر بقدر غير قليل من الشفقة تجاه نفسه. ثم خطرت له فكرة -ليس عن عمد لكن كومضة لمعت في رأسه- أن يأخذ عربة إلى المحطة، ثم يستقل قطارًا، لا يهم إلى أين، ويختفي، تاركًا الجميع وراءه. وفيما

بعد يستطيع أن يظهر مرة أخرى في مكان ما بالخارج، ويبدأ حياة جديدة، بشخصية مختلفة. تذكر بعض الحالات المرضية الغريبة التي قرأ عنها في كتب الطب النفسي، تلك التي تُسمى بالحياة المزدوجة. رجل يعيش في ظروف طبيعية يختفي فجأة، ولا أحد يسمع عنه شيئًا، ثم يعود بعد شهور أو سنوات ولا يتذكر أين كان طوال هذه المدة. لكن فيما بعد، يتعرف عليه شخص، كان قد التقاه في مكان ما، في بلد أجنبي، لكن الرجل نفسه لا يتذكر شيئًا من هذا. مثل تلك الأشياء لا تحدث كثيرًا بكل تأكيد، لكن هذا لا ينفي أنها حقيقية. ولعل هناك آخرين كثيرين مروا بتجارب مشابهة وإن كانت بدرجات أقل. على سبيل المثال، عندما يستفيق المرء من أحلامه. والمرء، بطبيعة الحال، يستطيع أن يتذكر بعضًا من أحلامه، لكن لا بد أن هناك أحلامًا أخرى ينساها بالكامل، ولا يتذكر منها شيئًا سوى مِزاج غامض، خدر غريب. أو ربما لا يتذكر منها شيئًا إلا بعد مرور وقت طويل، وعندها لا يعرف حتى إذا كان ما يتذكره حقيقة أم حلمًا، مجرد حلم!

وبينما كان فريدولين يتجول في الأنحاء، هائمًا على وجهه بلا هدف في اتجاه منزله، وجد نفسه بالقرب من الشارع المظلم، المشبوه، الذي سار فيه بصحبة الفتاة التعسة إلى حجرتها المتواضعة، قبل أقل من أربع وعشرين ساعة. لماذا "تعسة"؟ ولماذا هذا الشارع على وجه التحديد "مشبوه"؟ أليست غريبة هذه الطريقة التي تضللنا بها الكلمات، الطريقة التي نطلق بها الأسماء على الشوارع، والأحداث، والأشخاص، ونصدر أحكامنا عليهم، فقط لأننا أشد كسلاً من أن نغير عاداتنا المستقرة؟ ألم تكن هذه الفتاة، في حقيقة الأمر، الأكثر سحرًا، إن لم تكن بالفعل الأكثر نقاءً، من بين جميع النساء اللاتي التقاهن خلال الليلة الماضية؟ شعر بتأثر شديد عندما فكر فيها، وتذكر خططه في الليلة الماضية، فتوجه إلى أقرب محل واشترى لها أنواعًا شتى من الأطايب. مضى في طريقه حاملاً العلبة، مسرورًا لكونه يؤدي عملاً

إنسانيًا طيبًا، بل وربما جديرًا بالثناء أيضًا. ومع ذلك، فقد رفع ياقة معطفه لأعلى وهو يدلف إلى الردهة، ويصعد الدرج قفزًا. تناهى إلى سمعه جرس الباب حادًا بطريقة غير مرحبة وتنفس الصعداء عندما أخبرته امرأة سيئة السمعة -كما يبدو من مظهرها- أن الآنسة ميزي ليست بالمنزل. لكن قبل أن تتمكن من الاستيلاء على العلبة التي أحضرها لميزي، ظهرت امرأة أخرى وانضمت إليهما. كانت لا تزال شابة وشكلها لا بأس به، ترتدي شيئًا يشبه روب الحمام. وسألته: "عمن تبحث؟ الآنسة ميزي؟ حسنًا، لن تعود إلى البيت قبل بعض الوقت".

أشارت لها المرأة الأكبر سنًا أن تصمت، لكن فريدولين، المتلهف للحصول على تأكيد لما كان قد خمنه على وجه التقريب، سألها ببساطة شديدة: "إنها في المستشفى، أليس كذلك؟".

هتفت بحيوية ومرح وهي تقترب بشدة من فريدولين، بشفتين نصف منفرجتين: "حسنًا، بما أنك تعرف على أية حال. أما أنا فلا أعاني شيئًا، شكرًا للسماء". وبينما أخذت تستعرض جسدها الشهواني بجرأة شديدة، انفتح روب الحمام الذي كانت ترتديه. لكن فريدولين رفض العرض قائلاً: "كنت مارًا من هنا، فجئتُ لأحضر بعض الأشياء لميزي". وشعر فجأة بأنه عاد شابًا صغيرًا، لكنه سألها بنبرة محايدة: "في أي عنبر تقيم؟".

ذكرت له المرأة الشابة اسم أستاذ كان فريدولين قد عمل مساعدًا له في عيادته قبل سنوات عديدة، وأضافت بأريحية: "أعطني فقط هذه العُلب، وسوف أحملها لها في الغد. وأعدك ألا استولى على شيء منها لنفسي. وسوف أبلغها تحياتك أيضًا وأخبرها أنك ما زلت مخلصًا لها".

اقتربت منه وأطلقت ضحكة مغوية، لكن عندما تراجع قليلاً إلى الوراء توقفت في الحال وقالت له كأنما لتعزيه: "لقد قال الطبيب إنها ستعود إلى المنزل خلال ستة أو ثمانية أسابيع، على الأكثر".

حين عاد فريدولين إلى الشارع شعر برغبة خانقة في البكاء. لكنه كان يعرف أن السبب في ذلك لا يعود إلى تأثره العميق، بل لأن أعصابه أخذت تنهار تدريجيًا، فتعمد أن يسير بخطوات أسرع وأكثر نشاطًا مما تسمح به حالته المزاجية. هل هذه علامة أخرى، أو العلامة الأخيرة، على أن كل ما يفعله مآله الفشل لا محالة؟ لكن لماذا يجب أن يكون الأمر كذلك؟ فمجرد نجاحه في الهروب من خطر بهذا الحجم قد يكون في حد ذاته مؤشرًا طيبًا. هل الهروب من الخطر هو أهم الأشياء كافَّة؟ كان بإمكانه أن يتوقع مواجهة المزيد والمزيد من الأخطار، كونه لم يكن لديه أي استعداد للتوقف عن البحث عن تلك المرأة الرائعة التي التقاها الليلة الماضية.

وبطبيعة الحال، كان الوقت قد تأخر للقيام بأي شيء الآن. وفوق ذلك، كان عليه أن يفكر جيدًا في الطريقة التي سيواصل بها بحثه عنها.

فقط لو أن هناك من يستطيع أن يستشيره في الأمر! لكن لم يكن لديه أي شخص يستطيع أن يسر له بمغامراته في الليلة الماضية. فقد اعتاد لسنوات ألا يفضي بأسراره لأحد باستثناء زوجته، لكنه بالكاد يستطيع أن يناقش معها أمرًا كهذا. لا هذا ولا غيره. فكيفما نظرت إلى المسألة، فإنها قد تركتهم يصلبونه ليلة أمس دون أن تبدي أي احتجاج أو مقاومة.

وفي هذه اللحظة أدرك فجأة لماذا لم يكن يمشي متجهًا إلى البيت، بل يمضي بلا وعي منه مبتعدًا عنه أكثر فأكثر، في الاتجاه المعاكس. فلم يكن يريد، ولا يستطيع، مواجهة ألبرتينا الآن. وعين العقل أن

يذهب الآن لتناول عشائه في مكان بعيد عن المنزل، ثم يذهب بعدها إلى عنبره بالمستشفى ليعتني بمريضيه. لكنه لن يعود للبيت -"البيت؟"- تحت أي ظرف، حتى يتأكد من أنه سيجد ألبرتينا نائمة.

دخل إلى أحد أرقى المقاهي وأكثرها هدوءًا بالقرب من راتهاوس. ثم اتصل بالبيت ليخبرهم ألا ينتظروه على العشاء، ووضع السماعة بسرعة قبل أن تصل ألبرتينا إلى الهاتف.

جلس بجوار النافذة وأزاح الستارة. كان ثمة رجل قد اتخذ مجلسه للتو في ركن بعيد. كان يرتدي معطفًا داكنًا وثيابًا عادية ليس بها ما يلفت الأنظار، وفكر فريدولين أنه قد رأى وجهه في وقت سابق من هذا اليوم، لكن ربما كان يتخيل هذا فحسب. تناول صحيفة مسائية، وأخذ يقرأ بضعة سطور هنا وهناك، تمامًا مثلما فعل الليلة الماضية في مكان آخر. تغطيات إخبارية لأحداث سياسية، مقالات عن المسرح والفن والأدب، تقارير عن حوادث وكوارث. في مدينة ما لم يسمع بها من قبل في الولايات المتحدة، شب حريق في أحد المسارح وأتى عليه بالكامل. بيتر كوراند، منظف مداخن، ألقى بنفسه من النافذة. بدا لفريدولين من الغريب نوعًا ما أن يُقْدِم حتى منظفو المداخن، من حين لآخر، على الانتحار. وبطريقة لا إرادية، وجد نفسه يتساءل عما إذا كان هذا الرجل قد اغتسل جيدًا أولاً، أم أنه ألقى بنفسه في أحضان العدم كما هو، أسود وقذرًا. تناولت امرأة السم هذا الصباح في أحد الفنادق الراقية بقلب المدينة. كانت امرأة بارعة الجمال ونزلت هناك تحت اسم "البارونة د"، وفي الحال انتابه هاجس غريب؛ فقد عادت المرأة إلى الفندق في الرابعة صباحًا، بصحبة رجلين تركاها عند الباب. الرابعة صباحًا! تلك بالضبط هي الساعة التي وصل فيها هو أيضًا إلى البيت. وعند الظهر -يتابع التقرير- تم العثور عليها فاقدة الوعي في سريرها، وكل الدلائل تشير إلى إصابتها بتسمم خطير... امرأة بارعة الجمال... حسنًا، هناك العديد من النساء بارعات الجمال؛ ولم

يكن هناك ما يدعو للاعتقاد بأن "البارونة د"، أو بالأحرى المرأة التي نزلت بالفندق تحت هذا الاسم، كانت شخصًا آخر بعينه. ومع ذلك، فقد خفق قلبه بشدة وارتجفت يده وهي تمسك بالورقة. في فندق راقٍ... ما هو؟ ولماذا كل هذا الغموض وكل هذا التكتم؟

خفض الجريدة، وفي اللحظة نفسها رفع الرجل الجالس في الركن البعيد صحيفة مصورة ضخمة ليحجب بها وجهه. فتناول فريدولين جريدته مرة أخرى، وقرر أن "البارونة د" لا بد أنها المرأة نفسها التي رآها الليلة الماضية. في فندق راقٍ... لا يوجد الكثير من الفنادق التي يمكن أن ينطبق عليها هذا الوصف، من وجهة نظر "البارونة د"... وأيًا كان ما حدث، عليه الآن أن يتتبع هذا الخيط. فنادى الساقي، ودفع حسابه وغادر. وعندما وصل إلى الباب استدار بحثًا عن الشخص المريب الجالس في الركن. لكنه، لدهشته، كان قد اختفى!

تسمم خطير... لكنها ما زالت على قيد الحياة... كانت لا تزال على قيد الحياة عندما عثروا عليها. ولم يكن هناك ما يدعو حقًا للاعتقاد بأنهم لم يتمكنوا من إنقاذها. وفي كل الأحوال، سيعثر عليها - سواء **كانت لا تزال حية أو** لا. وسوف يراها.. حية أو ميتة سوف يراها؛ لا أحد في العالم يستطيع أن يمنعه من رؤية المرأة التي ماتت بسببه؛ بل، وفي الحقيقة، ماتت من أجله. كان هو السبب في موتها -هو وحده- بفرض أنها المرأة نفسها. نعم، إنها المرأة نفسها. فقد عادت إلى الفندق في الرابعة صباحًا، بصحبة رجلين! من المرجح جدًا أنهما الرجلان نفسها اللذان اصطحبا ناختيجال إلى المحطة بعدها بساعات قليلة. لم يكن في كل هذا ما يدعو إلى الاطمئنان.

وقف في الميدان الفسيح قبالة الراتهاوس وأخذ يتلفت حوله. لم يكن هناك سوى عدد قليل من الأشخاص، ليس من بينهم الرجل ذو الهيئة المريبة الذي رآه في المقهى. لكن حتى لو كان موجودًا بينهم -كانوا جميعًا خائفين- فقد كانت لفريدولين اليد الطولى. أخذ يحث

الخطى، وعندما وصل إلى "الرينج" استقل عربة أجرة، واتجه بها أولاً إلى فندق بريستول، وسأل الحارس، وكأنه يمتلك كافة الصلاحيات لذلك، عما إذا كانت "البارونة د"، التي تناولت السم هذا الصباح، قد نزلت في هذا الفندق. لم يبدُ على الحارس أي أثر للدهشة؛ لعله ظن فريدولين ضابط شرطة أو موظفًا رسميًا. وعلى كل حال، فقد أخبره بأدب أن الحادث المؤسف لم يقع هناك، إنما في فندق إرزهيرزوج كارل.

اتجه فريدولين إلى هناك على الفور، ووجد أن "البارونة د" قد نُقلت إلى المستشفى العام بعد العثور عليها مباشرةً. واستفسر أيضًا عن الطريقة التي اكتشفوا بها محاولتها الانتحار. فما الذي يدعوهم، في منتصف النهار، إلى إقلاق راحة سيدة لم تعد إلى غرفتها إلا في الرابعة صباحًا؟ حسنًا، الأمر غاية في البساطة؛ فقد جاء رجلان (الرجلان مرة أخرى!) ليسألا عنها في الحادية عشرة صباحًا. لكن السيدة لم ترد على الهاتف، رغم أنهما حاولا الاتصال بها عدة مرات، وعندما طرقت الخادمة باب غرفتها، لم تتلقّ أية إجابة. كان الباب مغلقًا من الداخل. وفي النهاي، كان لا بد من أن يكسروا الباب، حيث وجدوا البارونة في سريرها، فاقدة الوعي. وعلى الفور، استدعوا سيارة إسعاف وأبلغوا الشرطة.

سأله فريدولين، بحدة شديدة، وقد تقمص دور مخبر سري: "والرجلان؟".

نعم، بالطبع، كانت لهما هيئة مريبة جدًا، وفي تلك اللحظة اختفيا تمامًا بلا أثر. وعلى كل حال، لم يكن من المرجح أنها البارونة دوبيسكي، وهو الاسم الذي نزلت تحته في الفندق. كانت تلك هي المرة الأولى التي تنزل فيها في هذا الفندق. وفوق ذلك، لم تكن هناك عائلة بهذا الاسم، على الأقل بين العائلات النبيلة.

شكر فريدولين الحارس على هذه المعلومات وغادر سريعًا، بعد أن جاء أحد مديري الفندق ونظر إليه بفضول بغيض. عاد إلى عربة الأجرة وطلب إلى السائق أن يأخذه إلى المستشفى. وبعد دقائق، في المكتب الخارجي، عرف أن البارونة المزعومة نُقلت إلى العيادة الثانية في قسم الطب الداخلي. ورغم كل الجهود التي بذلها الأطباء، فقد فارقت الحياة في الخامسة مساءً-دون أن تستعيد وعيها.

أطلق فريدولين تنهيدة ارتياح بدت أشبه بآهة عميقة، جعلت الموظف المناوب ينظر إليه بدهشة، فاستجمع فريدولين نفسه واستأذن بأدب في الذهاب. وبعد دقيقة واحدة كان يقف في الخارج مرة أخرى. لم يكن هناك أحد في فناء المستشفى ما عدا ممرضة واحدة، تسير في ممر قريب، بزيها الأزرق والأبيض وقلنسوة على رأسها. قال فريدولين محدثًا نفسه: لقد ماتت.. بفرض أنها هي. وإن لم تكن؟ لو كانت لا تزال على قيد الحياة، فكيف لي أن أعثر عليها؟ أين يمكنه في هذه اللحظة العثور على جثمان المرأة المجهولة؟ كان بوسعه أن يجيب بسهولة شديدة على هذا السؤال. فلو أنها لم تفارق الحياة إلا منذ قليل، فلا شك أنها ترقد الآن في مشرحة المستشفى، على بعد بضع مئات من الخطوات. وبصفته طبيبًا، لن يجد صعوبة بالطبع في الدخول إلى هناك، حتى في مثل هذه الساعة المتأخرة. لكن ماذا يريد أن يفعل هناك؟ إنه لم يرَ وجهها قط، لم يرَ إلا جسدها. ولم يختلس إلا نظرة سريعة إلى وجهها بينما كانوا يسوقونه إلى الخارج. لكنه لم يكن قد فكر في هذه الحقيقة حتى هذه اللحظة. فمنذ أن قرأ الخبر في الجريدة، ظل يتصور أن للمنتحرة، التي لم يكن يعرف وجهها، ملامح ألبرتينا نفسها. والواقع، أنه سرت فيه رعدة الآن عندما أدرك أنه ظل طوال الوقت يرى زوجته بعين خياله، على اعتبارها المرأة التي يبحث عنها. وسأل نفسه مجددًا عن سبب رغبته في الذهاب إلى المشرحة. كان متأكدًا أنه لو التقاها مرة أخرى وهي لا تزال على قيد

الحياة -بعد أيام أو سنين، وتحت أي ظرف- فسوف يتعرف عليها دون أدنى شك، من خلال طريقتها في الحركة والمشي، وقبل كل شيء، من خلال صوتها. أما الآن فلن يرى سوى الجسد، جسد امرأة ميتة، ووجه لا يتذكر منه إلا عينين، فارقتهما الحياة الآن. نعم، كان يعرف هاتين العينين، والشعر الذي انحل فجأة ولف جسدها العاري فيما كانوا يسوقونه إلى خارج الحجرة. فهل هذا يكفي لكي يعرف يقينًا إن كانت هي أم لا؟

بخطوات بطيئة ومترددة اجتاز الأفنية المألوفة لمعهد التشريح الباثولوجي. وجد الباب غير مغلق، فلم تكن ثمة حاجة إلى أن يرن الجرس. دوت خطواته على الأرض الحجرية وهو يجتاز القاعة ذات الإضاءة الخافتة. كان المكان يعبق بالروائح المألوفة، والمريحة إلى حد ما، لأنواع شتى من المواد الكيميائية. طرق باب غرفة الهيستولوجي حيث كان يتوقع وجود أحد المساعدين ما زال يمارس عمله. فتناهى إلى سمعه صوت أجش للغاية يقول "ادخل". دخل فريدولين إلى الحجرة ذات السقف العالي والمضاءة بطريقة تكاد تكون احتفالية. وكما توقع تقريبًا، كان الدكتور أدلر، زميله من أيام الدراسة والذي يعمل الآن مساعدًا في المعهد، واقفًا في منتصف الحجرة. رفع عينيه عن الميكروسكوب ونهض عن كرسيه.

قال لفريدولين بشيء من الضيق والدهشة أيضًا: "أوه، هذا أنت، إلامَ أدين بشرف زيارتك لي في مثل هذه الساعة غير المعتادة؟".

قال فريدولين: "اغفر لي إزعاجك؛ يبدو لي أنك كنتَ مستغرقًا في عمل ما".

أجابه أدلر بصوته الحاد الذي ما زال محتفظًا به منذ أيام الدراسة: "أجل". ثم أضاف بنبرة أكثر لطفًا: "أي شيء آخر يمكن أن

تفعله في هذه القاعات المقدسة في منتصف الليل؟ لكنك، بالطبع، لم تزعجني على الإطلاق. ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟".

وعندما لم يجِبه فريدولين، تابع كلامه: "حالة أديسون تلك التي أرسلتها إلينا اليوم ما زالت ممددة هناك، جميلة، لم تُمس. سيتم تشريحها غدًا في الثامنة والنصف صباحًا".

أخبره فريدولين بإيماءة أن هذا ليس سبب زيارته، فتابع الدكتور أدلر كلامه: "أوه، إذًا فالأمر يتعلق بذلك الورم في الرئة. حسنًا، لقد أظهر الفحص الهيستولوجي بوضوح أنه ساركوما، فلا حاجة بك إلى القلق بهذا الشأن أيضًا".

هز فريدولين رأسه مرة أخرى: "زيارتي لك لا علاقة لها بأي.. أمور رسمية".

قال أدلر: "حسنًا، هذا أفضل كثيرًا، كنتُ بدأتُ أعتقد أن تأنيب الضمير هو ما جاء بك إلى هنا في هذه الساعة، إذ يُفترض أن يكون الناس الطيبون نائمين في أسِرّتهم".

"الأمر يتعلق بتأنيب الضمير على نحو ما، أو على الأقل بالضمير بوجه عام".

"أوه!"

قال بنبرة جافة ومرتجلة: "بإيجاز وتركيز، أود الحصول على بعض المعلومات عن امرأة تُدعى البارونة دوبيسكي، ماتت نتيجة تسمم المورفين في العيادة الثانية هذا المساء. من المرجح أنها موجودة هنا الآن". ثم تابع بعجالة: "لدي إحساس أن تلك البارونة المزعومة امرأة عرفتها قبل سنوات على نحو عابر، وأنا مهتم بمعرفة ما إذا كنت محقًا في هذا أم لا...".

سأله أدلر: "سويسيديام؟". أومأ فريدولين: "نعم، انتحار". ترجم الكلمة كأنه يريد أن يُعيد المسألة إلى المستوى الشخصي.

قال أدلر وهو يشير بإصبعه نحوه مازحًا: "هل كانت تعيسة في حبها لفخامتك؟".

أجابه فريدولين بشيء من الانزعاج: "انتحار البارونة دوبيسكي ليس له أي علاقة بي على المستوى الشخصي".

"أستميحك عذرًا، فلم أقصد أن أكون فظًا. يمكننا أن نذهب على الفور لنرى بأنفسنا. فعلى حسب علمي، لم نتلقّ أي طلب من الطبيب الشرعي هذه الليلة، لذا فمن المرجح جدًا...".

التشريح الجنائي.. ومضت العبارة في ذهنه. من الممكن جدًا أن يكون الأمر هكذا. من يدري إن كان الانتحار قد تم بإرادتها أم لا؟ فكر مجددًا في الرجلين اللذين اختفيا فجأة من الفندق بعد أن عرفا بمحاولتها الانتحار. ربما يتكشف الأمر عن جريمة على جانب كبير من الخطورة والأهمية. ولكن أليس من الممكن استدعاؤه كشاهد؟ بل ألم يكن الواجب يحتم عليه إبلاغ الشرطة؟

تبع الدكتور أدلر عبر القاعة حتى وصلا إلى الباب في الجهة المقابلة، ووجداه مواربًا قليلاً. كانت الحجرة العارية ذات السقف العالي مضاءة بنور خافت، ينبعث من اللهب الضعيف لمصباح غاز ذي ذراعين. كان أقل من نصف الطاولات، التي يتراوح عددها من اثنتي عشرة إلى أربع عشرة طاولة، تحمل جثثًا، بعضها يرقد عاريًا، والبعض الآخر مغطى بأغطية من الكتان. خطا فريدولين إلى الطاولة التي بجوار الباب مباشرة وأزاح الغطاء بحرص عن رأس الجثة. وفجأة سقط عليها شعاع ضوء من الكشاف الكهربائي الذي يحمله الدكتور أدلر، ورأى فريدولين الوجه الشاحب لرجل ذي لحية رمادية، فغطاها على الفور ثانية بالملاءة. وعلى الطاولة المجاورة رأى جثة شاب

ضعيف البنية، وتناهى إلى سمعه صوت الدكتور أدلر يناديه من بعيد: "توجد هنا امرأة يتراوح عمرها بين الستين والسبعين، فأعتقد أنها ليست هي أيضًا".

وفجأة، شعر فريدولين بانجذاب لا يُقاوم نحو نهاية الحجرة، حيث كان الجسد الشاحب لامرأة يصدر وميضًا خافتًا في الظلام. كان الرأس متدليًا على أحد الجانبين والشعر الطويل الداكن يكاد يلمس الأرض. فمد يده بطريقة غريزية ليعيد الرأس إلى مكانه، لكن شعورًا بالفزع، غريبًا عليه تمامًا باعتباره طبيبًا، استولى عليه فجأة؛ فسحب يده على الفور. اقترب منه الدكتور أدلر، وقال وهو يشير إلى الجثث وراءه: "لا يمكن أن تكون واحدة منها، إذًا فمن المحتمل أن تكون هذه؟" ثم سلط كشافه الكهربائي على رأس المرأة. استطاع فريدولين أن يتغلب على فزعه، فرفع الرأس قليلاً بين يديه. وجه أبيض بجفنين نصف مغمضين يحدقان إليه، والفك السفلي يتدلى بارتخاء، فيما كانت الشفة العليا مرفوعة قليلاً لأعلى، كاشفة عن اللثة المزرقة وعدد من الأسنان البيضاء. لم يستطع فريدولين أن يقرر ما إذا كان هذا الوجه جميلاً ذات يوم من الأيام، أو حتى في اليوم السابق. كان وجهًا خاليًا من التعبير، بلا شخصية. وجهًا ميتًا، كان يمكن، بالقدر نفسه، أن يكون وجه فتاة في الثامنة عشرة، أو امرأة في الثامنة والثلاثين.

سأله الدكتور أدلر: "هل هذه هي؟".

انحنى فريدولين فوقها، كأنه كان ليستطيع بنظرته الثاقبة أن ينتزع إجابة من هذه الملامح المتصلبة. لكن في الوقت نفسه، كان يعرف أنه حتى وإن كان هذا الوجه وجهها، وهاتان العينان عينيها اللتين توهجتا بتلك العاطفة الجياشة وهما تحدقان إليه بالأمس، فإنه ما كان ليعرف، وليس بوسعه أن يعرف ذلك، بل، وفي الحقيقة، لا يريد حتى معرفته. فأعاد الرأس برقة إلى مكانه على الطاولة. وتتبع بعينيه شعاع الضوء المتحرك وهو يمر على امتداد الجسد الميت. هل كان

جسدها؟ الجسد الرائع المغوي الذي -بالأمس فقط- شعر تجاهه بتلك الرغبة الحارقة؟ لمس فريدولين جبين وخدي وكتفي وذراعي المرأة الميتة، وفعل هذا كشخص واقع تحت تأثير قوة قاهرة غير مرئية توجه حركاته. لف أصابعه حول أصابع الجثة التي، رغم تصلبها الشديد، خُيل إليه أنها تبذل جهدًا لكي تتحرك، وتمسك بيده. بل وشعر تقريبًا أن ثمة نظرة مبهمة آتية من أعماق سحيقة، تتسلل من تحت جفنيها متفحصة وجهه. فانحنى فوقها، كأن ثمة قوة سحرية تجذبه إليها.

فجأة، سمع صوتًا يهمس خلفه: "ماذا تفعل بحق الجحيم؟".

وفي التو، استجمع فريدولين نفسه، وحرر أصابعه من أصابع الجثة، ثم أمسك برسغيها النحيلين، ووضع الذراعين الباردتين كالثلج على جانبي الجثة بحرص شديد، بل ومبالغ فيه قليلاً. بدا له أنها فارقت الحياة في هذه اللحظة بالضبط. ثم أشاح بوجهه، واتجه إلى الباب، واجتاز الممر الذي يتردد فيه الصدى عائدًا إلى الحجرة التي غادراها قبل قليل، وتبعه الدكتور أدلر في صمت ثم أغلق الباب خلفهما.

اتجه فريدولين إلى الحوض. قال وهو يغسل يديه جيدًا بالمطهرات: "بعد إذنك". بدا دكتور أدلر متلهفًا على استئناف عمله الذي انقطع، بلا مزيد من المجاملات. فأضاء مصباح ميكروسكوبه، وقام بضبط الميكروميتر، ثم نظر في عدسة الميكروسكوب. وعندما جاء فريدولين ليودعه كان قد استغرق تمامًا في العمل.

"هل ترغب في إلقاء نظرة على هذا المستحضر؟".

سأله فريدولين بذهن شارد: "لماذا؟".

"حسنًا، لكي تُريح ضميرك". قالها الدكتور أدلر كأنه يعتقد أن زيارة فريدولين له كانت، رغم كل شيء، لأغراض طبية وعلمية.

ثم سأله: "هل تراها بوضوح؟"، وتابع فيما راح فريدولين ينظر خلال الميكروسكوب: "إنها طريقة جديدة تمامًا في صباغة العينات".

أومأ فريدولين دون أن يرفع عينيه عن الشريحة الزجاجية: "نموذجية تمامًا، لوحة زاهية الألوان، إن جاز القول".

واستفسر منه عن مختلف التفاصيل الخاصة بهذه التقنية الجديدة.

أعطاه الدكتور أدلر الإيضاحات التي طلبها كافة. وأخبره فيدولين أن هذه الطريقة الجديدة من الممكن أن تكون ذات نفع عظيم له في عمل يخطط للقيام به خلال الشهور القليلة المقبلة، واستأذنه في المجيء مرة أخرى للحصول على المزيد من المعلومات.

قال الدكتور أدلر: "أنا في خدمتك دائمًا"، واصطحبه إلى الخارج عبر الممر نحو الباب الخارجي، وفتحه بمفتاحه الخاص.

سأله فريدولين: "ألن تذهب الآن؟".

أجابه دكتور أدلر: "بالطبع لا؛ هذا هو أفضل وقت للعمل على الإطلاق: من منتصف الليل تقريبًا حتى الصباح، إذ يكون بإمكانك على الأقل أن تضمن تمامًا أن لا أحد سوف يزعجك".

قال فريدولين، بابتسامة خفيفة، كأنه يشعر بتأنيب الضمير: "حسنًا".

وضع الدكتور أدلر يده على ذراعه ليطمأنه، ثم سأله بشيء من التحفظ: "حسنًا، هل كانت هي؟".

تردد فريدولين لوهلة، ثم أومأ برأسه، دون أن ينبس بكلمة واحدة. كان بالكاد يعي أن تصرفه هذا قد يجعله مذنبًا بالكذب. ولم يكن يهتم بما إذا كانت المرأة -الممددة الآن في مشرحة المستشفى- هي المرأة نفسها التي كانت، قبل أربع وعشرين ساعة فقط، عارية

بين أحضانه، يرقصان معًا على الأنغام الجامحة التي يعزفها ناختيجال. لم يكن مهمًا إذا كانت هذه الجثة تخص امرأة أخرى مجهولة، امرأة غريبة تمامًا لم تقع عيناه عليها من قبل. حتى وإن كانت المرأة التي بحث عنها، واشتهاها، وأحبها لساعة ربما، ما زالت على قيد الحياة، فقد كان يعرف أن الجسد الذي يرقد الآن في الحجرة ذات الأقواس، تحت الضوء المرتجف لمصابيح الغاز، ظل وسط الظلال، جسد معتم، خالٍ من المعنى والأسرار مثل الظلال نفسها، لا يمكن أن يكون بالنسبة إليه سوى الجثة الشاحبة لليلة الماضية، المنذورة لتحلل وفساد لا رجعة عنهما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

7

سار فريدولين مسرعًا عبر الشوارع المظلمة الخالية. وبعد أن خلع ملابسه في حجرة الكشف، كما فعل قبل أربع وعشرين ساعة فقط، دخل إلى حجرة النوم بصمت على قدر المستطاع.

تناهى إلى سمعه تنفس ألبرتينا الهادئ المنتظم، ورأى شكل رأسها فوق الوسادة الناعمة. وفجأة على غير توقع، امتلأ قلبه بالرقة، بل والطمأنينة أيضًا. وقرر أن يحكي لها أحداث الليلة السابقة في أقرب وقت.. ربما في الغد حتى، لكنه سيرويها، كأن كل الأشياء التي مر بها كانت مجرد حلم. وعندما تدرك تمامًا مدى عبثية مغامراته وخلوها الكامل من المعنى، سيعترف لها بأنها حدثت له في الواقع. سأل نفسه: الواقع؟ وفي هذه اللحظة لاحظ وجود شيء داكن بالقرب من وجه ألبرتينا. كان يقبع هناك فوق وسادته، وله معالم واضحة أشبه بملامح مبهمة لوجه بشري. لوهلة، توقف قلبه عن الخفقان، لكن بعد لحظة أدرك ما هو، فمد يده ليتناول القناع الذي ارتداه في الليلة الماضية. لا بد أنه فقده في أثناء إعداد صرّته، فعثرت عليها الخادمة أو

ألبرتينا نفسها. ولا شك أن ألبرتينا، بعد هذا الاكتشاف، بدأت ترتاب في شيء ما، وربما في أشياء أكثر وأسوأ مما حدث بالفعل. وأرادت أن تخبره بهذا بطريقة غير المباشرة، من خلال وضع هذا القناع على الوسادة المجاورة لوسادتها، كأنه رمز لوجهه.. وجه زوجها الذي أصبح لغزًا بالنسبة إليها. هذا التصرف الذي يفيض بروح الدعابة، والمازح تقريبًا، بدا له أنه يعبر، في آنٍ واحد، عن تحذير رقيق واستعدادها للصفح والغفران. وكان على ثقة من أنها حين تتذكر حلمها الخاص، فإنها لن تميل إلى أخذ حلمه هو على محمل الجد أكثر مما ينبغي، أيًا كان ما حدث. لكن فجأة، خارت قوته، فأسقط القناع من يده، وأطلق نشيجًا عاليًا ومؤلمًا، وفجأة من دون مقدمات تهالك بجوار السرير، ودفن رأسه في الوسادة، وانخرط في البكاء.

بعد عدة دقائق شعر بيد ناعمة تداعب شعره. فرفع عينيه وصرخ من أعماق قلبه قائلاً: "سوف أخبركِ بكل شيء".

رفعت يدها، كأنما لتمنعه، لكنه أمسك بها، وحدق إليها بنظرة تساؤل واستعطاف. فشجعته بإيماءة من رأسها وبدأ يحكي.

كان ضوء الفجر الرمادي قد بدأ يتسلل عبر الستائر عندما انتهى من حكايته. ولم تقاطعه ألبرتينا في أثناء ذلك بسؤال واحد بدافع الفضول أو نفاد الصبر. فربما كانت تشعر أنه ما كان ليخفي عنها شيئًا، بل ولا يستطيع ذلك حتى إن أراد. كانت مستلقية هناك في هدوء، بذراعيها مطويتين تحت رأسها، وظلت صامتة لفترة طويلة بعد أن انتهى من حكايته. ظل رقدًا بجوارها لبعض الوقت، وفي النهاية انحنى فوقها، ونظر إلى وجهها الجامد بلا حراك، وعينيها الواسعتين اللامعتين اللتين بدا أن الصباح قد أشرق فيهما، وسألها بصوت يختلط فيه الأمل بالشك: "ماذا نحن فاعلان الآن يا ألبرتينا؟".

ابتسمت له، وبعد دقيقة أجابته: "أعتقد أننا يجب أن نشعر بالامتنان لكوننا خرجنا سالمين من كل مغامراتنا، سواء كانت حقيقية أو مجرد حلم".

"هل أنتِ متأكدة تمامًا من هذا؟".

"تمامًا مثلما أنا متأكدة من أن حقيقة ليلة واحدة، ناهيك بعُمر بأكمله، ليست هي الحقيقة كلها".

قال بتنهيدة صغيرة: "وما من حلم ليس إلا حلمًا فحسب".

أمسكت برأسه ووسدته صدرها: "الآن أعتقد أننا مستيقظان، ولوقت طويل مقبل".

كان على وشك أن يقول لها "إلى الأبد"، لكن قبل أن يتكلم، وضعت إصبعها على شفتيه، وهمست كأنما تحدث نفسها: "لا تحاول أبدًا استجلاء المستقبل".

وهكذا، استلقيا في صمت، وغفوا قليلاً، بلا أحلام، قريبين أحدهما من الآخر، حتى تناهى إلى سمعهما، كما يحدث دائمًا في السابعة صباحًا كل يوم، صوت طرقات على الباب. ومع الجلبة المعتادة الآتية من الشارع، وشعاع الضوء المنتصر المتسلل عبر الستائر، والضحكات الصافية للطفلة عبر الباب، بدأ اليوم الجديد.

النهاية

مكتبة
t.me/soramnqraa

قصة حلم

رواية

telegram
@soramnqraa

الحدس أم المنهجية؟..

في الوقت نفسه تغير الصوت الذي يغني، فراح يعلو بطريقة فنية بارعة، من طبقته المنخفضة الرصينة إلى نغمة عالية مفعمة بالبهجة. وبدلاً من الأرغنّ صدح البيانو فجأة بأنغام أرضية جريئة، تعرف فيها فريدولين في الحال على لمسات ناختيجال الجامحة الملتهبة. بينما صوت المرأة، الذي كان قبل لحظة واحدة مفعمًا بالجلال والوقار، بدا كأنه قد اخترق السقف بانفجارة أخيرة شهوانية وجامحة، متلاشيًا في اللانهاية.

"ظني أنني تجنبت لقاءك لأنني كرهت أن أقابل نظيري. ليس معنى هذا أنني أميل بسهولة إلى تعريف نفسي بآخر، أو تجاهلًا مني للاختلافات في الموهبة بيني وبينك، لكنني كلما تعمقت في إبداعاتك الخلاقة يبدو أنني أجد دائمًا، تحت سطحها الشاعري، الافتراضات والاهتمامات والخُلاصات نفسها التي أعرف أنها لي أنا. يقينك وشكك الذي يدعوه البعض تشاؤمًا، انشغالك بحقائق الوعي الباطن ودوافع المرء الغريزية، تشريحك للأعراف الثقافية لمجتمعنا، استقرار أفكارك على قطبي الحب والموت، كل هذا يثير لديّ شعورًا مدهشًا بالألفة"

من رسالة فرويد إلى شنيتزلر

ISBN 978-977-313-762-5

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

مركز المحروسة
للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات